الفصل الخامس

فى القضايا المعاصرة

obeikandl.com

obeikandl.com

١ ــ عالميــة الاســلام

(أ) خلق الله الناس جميعا من أصل واحــد ، فهم متساوون فى مصدر الخلق ، وفى العناصر التى تتكون منها أجسامهم ·

يقول الله تعــالى **« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها »**[1] ··

لذا اشترك الناس فى الخصائص الانسانية العامة ، وفى الصفات الأصلية التى يقوم عليها مفهوم الانسانية ·

غير أن حكمة الله اقتضت أن يكون لاختلاف التضاريس ، وتباين المناطق الجغرافية أثره على ملامح المجموعات البشرية ، فتمايزت كل مجموعة عن الأخرى ، فى الحجم ، والشكل واللون ، واختلفت مشارب كل منطقة عن الأخرى ، فتنوعت أساليب حياتهم ، وكثرت أشكال عاداتهم وتقاليدهم ، واختلف تبعا لذلك انتماءاتهم ، سواء أكان ذلك على مستوى المجموعات الكبيرة كالأمم والشعوب ، أو فى حدود التجمعات الصغيرة كالقبائل والأسر ، أو فى اطار الذاتية كالأفراد والأشخاص ·

ولولا هــذه الاختلافات ، لأصبح من العسير تمييز شخص عن آخر ، أو تحديد ملامح ســكان منطقة ما ، وفصلها عن غيرها من ســكان المناطق الأخرى ، فتختلط الأمور وتتشابك ، اذ يصبح كل شبيه بالآخر ، ويصير الجميع نسخة مكررة ، لا ملامح للتمييز ، ولا معالم للتفريق وقد عبر القرآن الكريم عن هــذا المعنى فى قوله تعالى : **« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا »**[2] ··

أى ليعرف كل منكم الآخر ، عن طريق الملامح المميزة له ، والعادات والتقاليد التى تفصله عن الآخر على هيئــة شعوب وقبائل ، أى ليعرف كل منكم أن هــذا ينتمى الى هــذا الشعب أو ذاك ، وأن ذاك فرد من أفراد هــذه القبيلة أو تلك · غير أن هــذا الاختلاف أوحى الى بعض

---

(١) النساء : ١ ·   (٢) الحجرات : ١٣ ·

المنكرين ودعاة المذاهب الفكرية بالتفاضل بين الأجناس ، لدرجة أنهم نسوا أن الناس خلقوا من أصل واحد ، فدعوا الى نظرية تعدد أصول الأجناس البشرية ، وتأثر بهذا بعض رجال الدين فاعتقدوا أن الله فضل جنسهم على سائر الأجناس البشرية •

فاذا كانت مبادىء الدين واتجاهاته التشريعية ، تحمل هذه المظاهر المحلية ، وتعامل الناس على أساس الفروق البيئية ، فتعالج مشاكل قبلية أو اقليمية فقط ، دون أن تتجاوزها الى المشاكل العالمية التى لا تختص باقليم دون آخر وتنحصر داخل حياة طائفة من الناس دون أخرى ، فهو دين محلى ، يختص باقليم دون آخر ، أو يخاطب شعبا دون غيره من بقية الشعوب •

ولو استعرضنا الأديان المعروفة والمشهورة ، لتبين لنا من أول وهلة أنها أديان لا تحمل صفة العالمية ، ويظهر ذلك واضحا : لو لاحظنا — على سبيل المثال — الأسماء التى عرفت بها تلك الأديان ، فالنصرانية نسبة الى قرية الناصرة ، وهى تسمية توحى بالانحصار فى الاقليمية ، واليهودية نسبة الى يهودا ، وهو تحديد بشخص معين ، وكذلك البوذية ، والمانوية ، والزارادشتية ، وغيرها من الأديان الأخرى •

أما الاسلام ، فهو عالمى فى تسميته ، ومبادئه ، وأحكامه ، وتشريعاته ، فهو لم يتخذ اسما خاصا بأحد ، ولم ينسب الى فئة معينة ، أو قبيلة خاصة فيقول الله تعالى :« **ان الدين عند الله الاسلام** »(٣) ••

ويقول : « **ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما** »(٤) ••

فهو دين التسليم لله ، وهى صفة لا تخص مجموعة دون أخرى من الناس ، بل هى عامة عند الجميع ، فيقول الله تعالى : « **أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها واليه يرجعون** »(٥)

---

(٣) آل عمران : ١٩ •
(٤) آل عمران : ٦٧ •
(٥) آل عمران : ٨٣ •

وهكذا نرى من النظرة الأولى فى الأديان ، نظرة الاقتصار على مجرد النسبة ، أن تسمية الاسلام توحى بأنه دين عام للمخلوقات كلها ، وللناس كافة •

فاذا انتقلنا من التسمية الى الوحى وهو أساس كل رسالة دينية ، لوجدنا أن الوحى الذى أنزل على محمد ﷺ ، قد اشتمل على خصائص كل ما أنزل على الرسل من قبله ، يقول الله تعالى : **« انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ، وآتينا داوود زبورا • ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك »**[٦] •

فالتعبير بالنبيين من بعد نوح ، يشير الى أن القرآن الكريم جمع كل صفات الكتب السابقة التى أنزلت على الأنبياء جميعا ، مما صيره تشريعا عاما لجميع الناس •

كذلك التفصيل ثم الاجمال فى قوله تعالى : **« وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل »** الى أن قال : **« ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك »** يؤكد عموم رسالة الاسلام ، لأنها جمعت كل الخصائص التى اشتمل عليها كل وحى سبق على الاسلام ، وبناء عليه فهى لجميع البشر على اختلاف أقاليمهم ، وتنوع عاداتهم وتقاليدهم •

ولهذا جاء التعبير فى آيات القرآن الكريم بكلمة **« الانسان »** التى يندرج تحتها كل أجناس البشرية • يقول الله تعالى :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق • خلق الانسان من علق • اقرأ وربك الأكرم • الذى علم بالقلم • علم الانسان ما لم يعلم » [٧] ••

ولو أحصينا الآيات التى ورد فيها ذكر هذه الكلمة التى تطلق على البشرية جمعاء وهى « الانسان » لوجدنا أنها ذكرت فى أكثر من ستين آية •

وأهم من هذا فى مفهوم عالمية الاسلام أنه أكد مسئولية الفرد واستقلاله عن الارتباط فيها بالخصائص التى تفصله عن الهيكل الكلى

---

(٦) النساء : ١٦٣ •
(٧) العلق : ١ — ٥ •

للمجموعة البشرية ، كالقبيلة ، أو العشيرة ، فليست المسئولية تابعة لخصائص عرقية أو اقليمية ، وانما ترجع الى الانسان كفرد ، وهو يشترك فى هذا التخصيص مع كل انسان فى أى اقليم ، وداخل أى مجموعة عرقية أو قبلية ، يقول الله تعالى : « **انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان** »(٨) .

ويقول : « **وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا** » (٩) ..

فالمسئولية تقع على عاتق الفرد وحده ، بعيدا عن أهله الذين تميز بهم عن غيره من أفراد الانسانية ، وبعيدا عن اقليمه الذى فصله عن غيره داخل حدود معينة وعادات وتقاليد مختلفة عن غيرها من تقاليد الأقاليم الأخرى وعاداتهم ، فهى قد حملته من داخل هذا الاطار الضيق الى فضاء واسع ، وهو : العالمية ، حيث يشعر بأنه أخ لكل انسان على وجه الأرض .

وطبيعة الأمور تقتضى بأنه ما دام الاسم عاما ، وهو « الاسلام » والوحى يتضمن كل خصائص الوحى السابق ، والمسئولية فيه تقع على عاتق الانسان باعتباره انسانا لا بكونه فردا من قبيلة أو شعب ، فالاسلام بناء على هذا هو : رسالة الله للناس كافة ، وللانسان الذى استخلفه الله فى الأرض ، أينما كان ، وحيثما وجد ، فهو دعوة عالمية فى طبيعتها ومفهومها .

وقد صرح القرآن الكريم بهذا المعنى فى كثير من آياته ، يقول الله تعالى : « **وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون** » (١٠) ..

« **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** » (١١) .

---

(٨) الأحزاب : ٧٢ .
(٩) الاسراء : ١٣ ، ١٤ .
(١٠) سبأ : ٢٨ .
(١١) الصف : ٩ .

obeikandi.com

« تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » [١٢]..

« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » [١٣] ..

« ان هو الا ذكر للعالمين » [١٤] ..

« ان هو الا ذكر وقرآن مبين . لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين » [١٥] ..

فكل هذه الآيات توضح مفهوم العالمية فى الاسلام ، وهى دليل يؤكد ما بيناه من خصائص من تقع المسئولية على عاتقه ، وهى خصائص عامة يندرج تحتها كل انسان على وجه الأرض .

***

(ب) تموج أقطار الأرض بتيارات فكرية مختلفة المنابع والأصول ، ومتعددة المذاهب والاتجاهات ، ومتلونة الأشكال والأحجام . وليس هذا قاصرا على المذاهب ذات الصبغة المادية ، بل هو أيضا بين الأديان والمذاهب الروحية ، سواء منها ما كان بشريا أرضيا فى أصله ومساره ، وما كان منها سماويا فى مبدئه ، ثم تحول الى مسار بشرى عن طريق ما علق به من أفكار الانسان واتجاهاته الخاضعة لظروف مختلفة ، ومؤثرات متعددة ، فاذا بحثنا فى هذه المذاهب الفكرية ، والاتجاهات الدينية ، عن مدى القدرة فيها على استيعاب ظروف الانسان فى كل مكان على وجه الأرض ، لتبين لنا أن ما كان منها موافقا لطبيعة الانسان فهو القادر على تهذيبه وتقويمه ، دون أن يكلفه بما لا يطيق ، ومن غير أن يلقنه أشياء بعيدة عن واقعه الانسانى .

ولما كانت قدرات الانسان غير متساوية ، وامكانياته متفاوتة ، فينبغى أن يكون الدين الذى ينظم حياته مشتملا على برنامج تربوى واضح ، يتسع لكل الظروف الانسانية ، ويعالج كل المشاكل التى تعترض طريق الانسان ، وفى الوقت نفسه يكون سهل التطبيق ، يسيرا على النفس الانسانية ، مطابقا لقدرات الانسان العقلية ، والجسمية ، مراعيا

---

(١٢) الفرقان : ١ .

(١٣) الأنبياء : ١٠٧ .

(١٤) سورة ص : ٨٧ ..

(١٥) يس : ٦٩ ، ٧٠ .

الظروف الطبيعية المحيطة به ، فاذا وجد هذا التكامل فى أى دين فهو دين عالمى لأنه يصلح للتطبيق مع كل انسان ، وتحت كل الظروف النفسية ، وفى كل الأجواء المناخية .

ولا يجتمع هـذا كله الا فى الاسلام ، ففيه الوضوح ، واليسر ، والسهولة ، اذ أنه خلا من التعقيدات الفلسفية ، التى لا يفهمها الا مجموعة قليلة جدا من العلماء أطلقوا على أنفسهم كلمة «الخاصة» أى المتخصصون فى هذا الفن ، وليس فيه المبهمات والمعميات التى كثرت فى الأديان المنتشرة فى بعض مناطق الكرة الأرضية ، وفى الوقت نفسه ؛ جاءت أحكامه وتشريعاته سهلة ميسرة ، بحيث يستطيع كل انسان الالتزام بها ، دون مشقة أو عناء لأنه موافق للطبيعة ، ومنسجم مع متطلبات تكوينه الفسيولوجى والنفسى ، فالاسلام مناسب لفطرة الانسان ، وغير مناقض للمسلمات العقلية التى يعتنقها ، ولا يتصادم مع حريته الانسانية ، التى تبنى كيانه ولا تدمره ، وتحافظ على وحدة مجتمعه ولا تمزقها .

فمن يقرأ القرآن الكريم يجده سهل المنال ، اذ يستطيع أن يجد فيه متعته النفسية والروحية ، ويفهم منه ما يحتاج اليه فى تنظيم حياته مع نفسه ، ومع الآخرين الذين يعيشون معه سواء أكانوا مشاركين له فى تجمعات بشرية معينة ، كالأسرة ، والأمة ، أو متعاملين معه فى الحياة فى دائرة أوسع من هذا التقييد الأسرى ، أو الوطنى .

ففى مجال التيسير على المؤمنين ، نجد القرآن الكريم يشير الى أن الله لم يرد من التكليف الا تهذيب الانسان ، دون أن يصيبه عنت أو حرج ، يقول الله تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم الى الكعبين ، وان كنتم جنبا فاطهروا ، وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ، ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم »**[١٦] ..

---

(١٦) المائدة : ٦ .

ويقول : « **يا أيها الذين آمنوا أركعوا واسـجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون • وجاهدوا فى الله حق جهاده ، هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج** » [(١٧)] ••

ويقول : عقب بيان فرض الصـيام •• « **يريـد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** » [(١٨)] ••

ولم يفرض الحج الا على المستطيع يقول تعالى : « **ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا** »[(١٩)] ••

ولم يقتصر أمر التيسير على الفرائض المكتوبة المتعلقة بالعبادات فقط ، بل هو القاعدة فى كل ما يطلبه الاسـلام من الانسـان ، يقول الله تعالى : « **لا يكلف الله نفسا الا وسعها** » [(٢٠)] ••

كذلك وافقت تعاليمه فطرة الانسان ، فأحكامه جاءت لصالحـه ، من حيث انه انسان ، يعنى هذا أن تكون هى شريعة الفطرة التى فطر الله الناس عليها . يقول تعالى فى بيان طبيعة الاسلام : « **فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليهـا ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** »[(٢١)] ••

فالمقصود بالفطرة فى هذه الآية هى طبيعة الانسان الجامعة بـين العالمين : المادى والروحى ، بما أودع فيها من غرائز ، أى أن الاسلام راعى هذه الفطرة فى بناء التكاليف عليها بحيث لا تكون مصطدمة معهـا ، أو مهملة لمقتضياتها المادية والروحية ، يقول الله تعالى : « **وابتغ فيمـا آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا** » [(٢٢)] ••

فهو ليس دينا مغرقا فى الروحانية ، وليس مذهبا تسيطر عليـه المـادية ، بل هو فطرة تتمشى مع طبيعة الانسان ، وبهذه الميزة كـان ملائما لجميع الأجناس البشرية ، فتقبله النفوس،على اختلاف مستوياتها، وتباين طرق حياتها ، لأنه يلبى مطالب الحياة بالقدر الذى يصلحها ،

---

(١٧) الحج : ٧٧ ، ٧٨ .
(١٨) البقرة : ١٨٥ .
(١٩) آل عمران : ٩٧ .
(٢٠) البقرة : ٢٨٦ ..
(٢١) الروم : ٣٠ .
(٢٢) القصص : ٧٧ .

ويجعل النشاط فيها ذا أثر فعال فى جميع مجالات الانتاج الذى يعود على الانسان بوصفه انسانا — بالخير والسعادة ، والأمن والأمان .

ومن الجوانب التى أكسبت الاسلام صفة العالمية ، قيام أحكامه وتشريعاته على أسس عقلية يفهمها كل انســـان يتمتع بهذه الميزة التى ميز الله بها الانسان على سائر الكائنات الحية ، وأكبر دليل على ذلك أن أول آية نزلت من القرآن الكريم خاطبت العقل ، وحثته على التفكير فى نفسه ، وفى كيفية خلقه ، يقول الله تعالى : « **اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم** » (٢٣) . .

كما أنه حث على استعمال العقل فيما حول الانســـان فى آيات كثيرة من القرآن الكريم ، نذكر منها قوله تعالى : « **كذلك يبين الله لكـــم الآيات لعلكم تتفكرون** » (٢٤) ..

« **قل هل يستوى الأعمى والبصير ، أفلا تتفكرون** » (٢٥) . .

« **أو لم يتفكروا فى أنفسهم** » (٢٦) . .

« **فاقصص القصص لعلهم يتفكرون** » (٢٧) . .

وغير ذلك من الآيات التى تثير فى الانسان غريزة التفكير فيما يحيط به ، وهى عامة لدى جميع البشر .

ويترتب على هذا ذم التقليد ، لأنه يشل تفكير الانسان ، ويحط من قدره ، ويجعله عالة على غيره ، وذلك ضد طبيعة الانسان ، وقد نزلت آيات كثيرة تسفه أحلام الذين ساروا ضد هذه الطبيعة ، فألغوا عقولهم ، وساروا مع كبرائهم ، دون أن يستخدموا عقولهم التى وهبهم الله اياها لتقودهم الى ما فيه خير والسعادة ، يقول الله تعالى : « **ولقد آتينـــا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . اذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل**

---

(٢٣) العلق : ١ — ٥ .
(٢٤) البقرة : ٢١٩ .
(٢٥) الأنعام : ٥٠ .
(٢٦) الروم : ٨ .
(٢٧) الأعراف : ١٧٦ .

obeikandi.com

التى أنتم لها عاكفون • قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين • قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين » (٢٨) ..

ويقول : « **وقالوا ربنـــا انا أطعنـــا ســـادتنا وكبراءنا فأضلونا الســـبيلا** »(٢٩) ..

وبناء على حث الاسلام على استخدام العقل : لا توجد حقيقة دينية فيه مخالفة للحقائق العقلية ، مما جعله صالحا لكل انسان على وجـــه الأرض ، لأنه يخاطب العقل الذى يشترك فيه جميع البشر ، فليس فى القرآن الكريم حقائق تختص بجنس دون آخر ، وتناسب قوما دون غيرهم من أقوام الأرض ، فالكل مشترك فى الأداة التى يتوجه اليها القرآن الكريم بأوامر الله ونواهيه ، ألا وهى : العقل •

وخلاصة القول : ان الاسلام دين عالمى ، بما فيه من يسر وسهولة تمكن كل الناس مهما اختلفت قدراتهم العقلية والجسمية ، من تأدية فرائضه وأحكامه ، وتهيىء الظروف لكل مجتمع بشرى ، لتطبيق شرائعه ، دون حرج أو مشقة فى هذا التطبيق ، لأنه يلائم الفطرة التى فطر الله الناس عليهـــا ، كما يخاطب العقل ، الذى يشـــترك الناس جميعا فى استخدامه كأداة تهديهم سواء السبيل فى معترك الحياة •

* * *

(جـ) تشغل قضية الحرية حيزا كبيرا فى الفكر الانسانى ، اذ مازالت تتصدر قائمة مبادىء كل مذهب فكرى ، على أساس أن حرية الانسان يجب أن يكفلها كل نظام يريد لنفسه البقاء ، وتحافظ عليها كل أيديولوجية تنشد الانتشار بين الناس ، ويدعو اليها كل المفكرين المشتغلين بقضايا الانسان والمجتمع ، ذلك أن الحرية هى احدى الدعائم الرئيسية التى يقوم عليها بناء الانسان بوصفه عضوا صالحا فى مجتمع قوى متماسك ، فان لم توجد فى المجتمع البشرى ضعف أفراده ، وانحلت عقدة التماســـك فيما بينهم ، فتناثروا فى مهب الريح ، لا يجمعهم هدف ، ولا يمسكهم مبدأ يرون فيه كيانهم ووجودهم •

---

(٢٨) الأنبياء : ٥١ — ٥٤ .   (٢٩) الأحزاب : ٦٧ .

ولهذا قدس الاسلام الحرية ، فدعا الى كفالتها ، ولو أدى ذلك الى عدم الاعتراف به دينا ، يقول الله تعالى : **« لا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى »**[٣٠] ..

ويقول : **« فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »**[٣١] ..

« ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » [٣٢] ..

فالله يبين لرسوله ﷺ فى هذه الآيات أن الايمان متروك لحرية الانسان فلا ينبغى أن يمارس الاكراه لحمل الناس عليه ، لأنه لو شاء الله لأكرههم على الايمان ، ولكنه تركهم بحريتهم ليكون الايمان نابعا من ذات الشخص نفسه حتى يثمر ايمانه ، لأن العمل لا يكون نافعا اذا فعله الانسان ، وهو فى كامل حريته .

ولهذا نظر الاسلام الى المجتمع نظرة شمولية ، فهو لا يفرق بين الناس على أساس معتقداتهم بحيث يسلبهم حريتهم بسبب هذه المعتقدات ، بل كفل لهم أسس العيش فى سلام واطمئنان داخل المجتمع الاسلامى ، وأعطاهم حرية كاملة فى ممارسة بناء المجتمع فلا زال قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » .. ناقوسا يرن فى آذان كل المجتمعات البشرية ، معلنا أن المسلمين طبقوا قواعد الحرية كما أمرهم الاسلام ، واستنكروا كل ما من شأنه أن يسلبها من المجتمع ، لأنها أساس كيان الانسانية ، ودعامة استقرار المجتمع على قواعد ثابتة لا تتزعزع أمام عواصف الدهر وتقلبات الأيام .

ومما يدل على سماحة الاسلام ، أن الرسول ﷺ عقد مع نصارى نجران عقدا مع بقائهم فى أماكنهم ، واقامتهم فى ديارهم ، دون أن يكون معهم أحد من المسلمين وقد تضمن هذا العهد حمايتهم والحفاظ على

---

(٣٠) البقرة : ٢٥٦ .
(٣١) الكهف : ٢٩
(٣٢) يونس : ٩٩ .

حرياتهم الشخصية والدينية ، واقامة العدل بينهم ، والانتصاف من الظالم • وقام الخلفاء من بعده على تنفيذه حتى عهد هارون الرشيد فأراد أن ينقضه فمنعه محمد بن الحسن صاحب الامام أبى حنيفة ، وفى هذا دلالة واضحة على روح التسامح فى معاملة غير المسلمين ، اذ حافظ على حرياتهم فى العبادة ، وفى اقامة شعائرهم الدينية من غير تضييق عليهم ، ولا تعكير صفو الجو الروحى لطقوسهم الدينية ، لأنه احترمها ، واتخذ من الاجراءات ما يحمى قداستها •

فتقديس الاسلام للحرية من أهم معالم العالمية ، لأنه فتح بذلك الباب على مصراعيه لكل الناس ، لينضووا تحت لوائه دون خوف أو وجل، ويستظلوا بظله ، من غير أن يشعروا بالغربة ، أو يحسوا بأن مبادئه تصطدم مع طبيعتهم ، فكل انسان يجد مبتغاه ، ما دام ملتزما بالقواعد الاجتماعية ، ومنفذا للقوانين التى تحافظ على الفرد والمجتمع ، لا فرق فى ذلك بين من آمن به ، ومن ارتضى العيش فى ظل دولته ، اذ لا يضار أحد فى نفسه أو أهله ، أوما يملك ولا يحجر على أحد فى ابداء رأيه ، أو فى التعبير عن فكره ، ما دام فى اطار المصلحة العامة أو فى المجال الخاص الذى لا يؤثر على الدولة ، أو الذى لا يلحق ضررا واضحا بالمواطنين •

وقد أدرك المسلمون هذه الروح الاسلامية فعاملوا غير المسلمين معاملة طيبة فى جميع العصور ، من بدء ظهور الاسلام حتى اليوم ، وكتب التاريخ مليئة بالأحداث التى تظهر هذا الجانب من معاملة المسلمين لغيرهم ممن بقوا على عقائدهم القديمة ، فقد روى أن عمر بن الخطاب مر بباب قوم وعليه سائل يسأل ، وكان شيخا ضرير البصر ، فضرب عمر عضده وقال له : من أى أهل الكتاب أنت ؟ فقال : يهودى • قال : فما ألجأك الى ما أرى ؟ قال : اسأل الجزية والحاجة والسن • فأخذ عمر بيده وذهب به الى منزله وأعطاه مما وجده ، ثم أرسل به الى خازن بيت المال ، وقال له : انظر هذا وضرباءه •• فوالله ما أنصفناه ان أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم ، انما الصدقات للفقراء والمساكين والفقراء هم فقراء

المسلمين ، وهذا من المساكين ، من أهل الكتاب ، ثم وضع عنه الجزية •

وقد سار أمراء المسلمين على هذا الدرب فى معاملة أرباب الأديان الأخرى الذين كانوا يعيشون فى الدولة الاسلامية ، فأحاطوهم بالرعاية والعناية ، وحافظوا على حقوقهم وأموالهم ، وكرموهم واستعانوا بهم فى مجالات الدولة المختلفة حتى وصل الأكفاء منهم الى مرتبة الوزارة ، وتلك ظاهرة لم تحدث مع غيره من الأديان ، وما ذاك الا لأنه دين عالمى فتح صدره لكل الناس على اختلاف مذاهبهم وأديانهم ، فأعطى الحرية للجميع فى التفكير ، وسمح لهم بممارسة طقوس عبادتهم فى ظل دولته ، وتركهم وما يعتقدون ما داموا ملتزمين بالخط العام الذى رسمه الاسلام للدولة •

وأكبر دليل على سماحة الاسلام مع أهل الأديان الأخرى ، قوله تعالى : « **قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** » (٣٣) ••

فلم يجبرهم على اعتناق مبادئه بالقوة كما فعل ذلك أرباب الأديان الأخرى فى حمل مخالفيهم على الايمان بعقائدهم ، بل تركهم واكتفى بأن يدركوا أن المسلمين قد أسلموا الوجه لله لا لغيره ، أى أنهم أطاعوه فنفذوا أوامره ، واجتنبوا نواهيه ، لعل فى هذا ما يوقظ فى نفوسهم جانب الخير ، فيتبينوا أن المسلمين على صواب فى دعوتهم لهذا الدين ، وذلك أقصى درجات الحرية فى أن يختار الانسان بنفسه ما يريد ، وما يراه صوابا بعد أن تظهر أمامه الحقيقة واضحة •

وأهم من هذا كله فى مفهوم عالمية الاسلام ، تقبله للثقافات الأخرى الغريبة عنه مما يدل على سعة أفقه ، ونظرته العالمية الواسعة الى الأديان

---

(٣٣) آل عمران : ٦٤ .

والأجناس الأخرى فأقام حضارة كبرى ساهم فيها أهل هذه الأجناس والأديان ، فى كل ناحية من نواحى الحياة ، والفكر ، والفلسفة ، والأدب ، والفن ، والطب ، واللغة ، والتصوف ، وكانت تلك الحضارة تأليفا وتوحيدا، لكل الحضارات قبلها فى : الصين ، والهند ، وفارس ، والروم ، واليونان .

بنى المسلمون على كل هذه الأساس بناء حضاريا ضخما ، اشترك فيه العلماء من جميع الأجناس والأديان ، فكانت بحق حضارة لجميع أهل الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم ، ثم انتقل هذا التراث الحضارى الى الأجيال اللاحقة ، فكان مصدرا للحضارة الحديثة ، وقد عبر أحد العلماء عن دور المسلمين فى بناء الحضارة الانسانية بقوله : « ان المسلمين لم يحرصوا فقط على أن يكونوا ورثة الأنبياء ، بل ورثة الفلاسفة كذلك » .

فالاسلام دين عالمى ، لأنه لم يغرس فى نفوس المسلمين حقدا ضد أى طائفة أخرى من البشر تعتنق دينا آخر ، ولم يحرم عليهم التزود بأى نوع من أنواع الثقافات الانسانية ، ولم يفرض عليهم شيئا يعزلهم عن غيرهم من أجناس البشرية ، ولم يأمرهم باجبار أحد على اعتناق الاسلام ، فكان بذلك ساحة ضمت جميع الناس ، وبوتقة صهرت جميع الثقافات ، وواديا أمن فيه الناس على أنفسهم ، وعقائدهم ، وأفكارهم ، واطمأنوا على سلامة أموالهم وممتلكاتهم ، فنظروا اليه غير خائفين ، وفكروا فى مبادئه غير وجلين ، ودرسوا أحكامه فى جو من الحرية والديمقراطية ، فجاء اعتناق من اتخذه دينا عن رغبة واقتناع ، وعاش فى ظل دولته من بقى على دينه آمنا مطمئنا ، يسعى الى رزقه ، ويشارك فى مجالات الدولة المختلفة تحت راية الاسلام التى ترفرف معلنة أنها مظلة الانسان ، من حيث هو انسان ، لأنه عبد الله ، الذى أنزل هذا الدين على محمد ﷺ .

* * *

(د) خلق الله الكون ، وجعل الحركة مبعث الحياة فيه ، فلو توقفت هذه الحركة لانعدمت الحياة كلية ، ومن لوازمها التغيير الدائم اذ لا يستمر شىء على وجه الأرض على حالة واحدة فى لحظتين ، بل هو

فى تفاعل مستمر ، وتغيير مطرد ، ولهذا نرى أن المجتمعات التى لا تدرك هذا القانون الالهى ، يصيبها الشلل عندما تبطىء حركتها ، أو تتجاهل حتمية الحركة التى هى أساس التطور والتقدم ، ومنبع الرقى وبناء الحضارات •

ولما كان هذا المبدأ هو أساس التقدم المطرد ، فان من المحتم ألا يبقى مظهر من مظاهر الحياة ثابتا ، والا كان عائقا يعوق سير الحياة فى مجراها الطبيعى ، لذا كان لابد للانسان أن يغير فى أسلوب حياته كى يتلاءم مع سنة التطور ، ويعدل فى قوانينه لتنسجم مع صور الحياة المتجددة وتلبى احتياجات المجتمع التى تنشأ عن التفاعلات المستمرة فى الظواهر الاجتماعية ، فان تقاعس أبناء الأمة على القيام بهذا العمل أو اعتقدوا أن ما خلفه الأجداد لهم أمر لا ينبغى تغييره لأنه من الأمور المقدسة التى لا يجوز محوها أو الاستغناء عنها أو تعديلها ، فقد حكموا على أنفسهم بالجمود ، وضربوا بينهم وبين التقدم سياجا يحول بينهم وبين مشاركتهم فى بناء الحضارة العالمية •

وان كان جمودهم على القديم بسبب عجزهم عن فهم طبيعة الحياة ، وتخاذلهم عن الاسهام فى حركة التقدم الانسانى ، وقصورهم الفكرى عن التأثير فى مجالات الحياة الفكرية ، فتلك آفة تصاب بها المجتمعات الانسانية من حين لآخر ، ومرض يفتك بالحيوية الخلاقة التى أودعها الله فى الانسان ، ليقوم بمهمة استخلافه فى الأرض •

ومن رحمة الله بالمجتمعات أن هيأ لها ظروفا تساعدها على التغلب على مثل هذه الآفات ، وتعينها على الشفاء من هذا المرض ، لتأخذ مكانها الطبيعى الذى خلقها الله لتؤدى دورها فيه •

وعلى الرغم من قانون التغيير الذى هو طابع الحياة فان هناك ظواهر ثابتة تتحرك بهيئتها وطابعها داخل عجلة الزمن التى لا تتوقف عن الدوران ، فهى بمثابة الأعمدة التى تمثل المركز الذى يجمع بأطراف المتغيرات المستمرة فى الظهور والعدم ، ولولا ذاك لانهار كل ما على الأرض أثناء هذه التحولات المستمرة •

ويبدو ذلك واضحا فى النظم والقوانين التى ترسم للمجتمعات طريقها فى الحياة ،وتحافظ على كيان الأمة من أن يصيبه الانهيار والدمار، وتحفظ طابع الحياة التى يتمثل فى الاستقرار ، والأمن ، والسعادة لبنى البشر ، ذلك أنه لو أصيبت هـذه القوانين بالجمود لجمدت الحياة ، وتخلف ركب الحضارة الانســانية ، ولو خلا كلية من عناصر ثابتة ، ومبادىء مستقرة ، لأصيب المجتمع بحمى التغيير السريع ، والتبديل المســتمر ، الذى لا يهدأ ولا يســتقر ، فترتبك الحياة وتضــطرب ، وتختلط الأمور وتتشابك ، فتقع العقول فى حيرة وتصاب الأمة بالشلل ، إذ تعجز عن تحديد مفاهيم ما يدور حولها ، فما كان بالأمس صالحا أصبح اليوم طالحا ، وما تمسكت به فى الماضى القريب لاعتقادها أنه مناســب لحياتها تستنكره اليوم وتنظر اليه بعين الاستهزاء والسخرية .

ولهذا كان لابد من أن تشتمل النظم والقوانين على مبادىء كلية ثابتة لا تتغير ، حتى يكون للحياة استقرارها ، ولسلوك الناس فى حياتهم الاجتماعية أسس لا تتغير ، ومبادىء كلية لا تتبدل ، ولا يمكن للعقل البشرى أن يضع مثل هــذه النظم والقوانين ، لأن امكاناته الذهنيــة مرتبطة بعصره ومحددة باقليمه ، لذا كان لابد لتحقيق هذين العنصرين ، وهما عنصر الثبات فى المبادىء الكلية ، وامكانية التغيير فى التفاصيل الفرعية لمواجهة التغيير المستمر من أن يكون قدرة واضع هذا القانون الذى يشتمل على هذين العنصرين غير محددة الزمان والمكان ، ليستطيع وضعه كاملا دون أن يصيبه خلل أو ضعف ، أو يطرأ عليــه فى وقت ما عــدم ملاءمة الظــروف المتغيرة ، ولا يقــدر على ذلك الا اللــه ســبحانه وتعالى .

فقد أنزل الله التشريع الاسلامى على محمد ﷺ ، متطابقا مع نظام الكون ، منسجما مع كل ما يطرأ من تغييرات أو يظهر على سطح الحياة من ظروف متجددة ، ذلك أنه تضــمن قواعد كلية تصلح لكل الأزمنة والعصور ، وتتمشى مع ما ينبغى أن تكون عليــه الحياة من الاستقرار أو تتفق مع الظواهر التى يشترك فيها جميع الأجناس البشرية ، ومع

ذلك فقد تركت التفاصيل والتفريعات لعقل الانسان يستخلصها حسب عصره وبيئته ، ويستنتجها طبقا لمتطلبات ظروفه المحيطة به بحيث يلبى احتياجات العصر ، وفى الوقت نفسه لا تخرج عن الخط الرئيسى الذى رسمه الاسلام كمبدأ عام يلتزم به الجميع أو كدستور يتخذه الناس قاعدة تشريعية أصلية : ينبثق عنها كل ما يقررونه من قوانين ، وما يرسمونه لأنفسهم من لوائح ونظم .

فالقضايا الكلية فى الاسلام هى قواعد التشريع الأساسية التى تصلح لكل شعب ، وتلبى احتياجات كل المجموعات البشرية على اختلاف ألوانها وأجناسها ، وتتناسب مع كل عصر وبيئة اذ يتخذها الجميع أساسا يستنتج منه أحكام لكل القضايا : وعلاج لكل المشاكل التى تواجه الانسان والمجتمعات ، فكانت هذه المبادىء الرئيسية فى التشريع أساسا للاجتهاد فى مجال الأحكام الشرعية الذى بمقتضاه تكونت المذاهب الفقهية فزخرت بالأحكام والتفريعات التى كانت منها فروض مقدرة الحدوث فى الأزمان المستقبلة .

فكان هذا العمل فى مجال التشريع ، دليلا على مرونة الفقه الاسلامى وصلاحيته لمواجهة الأحداث التى تظهر ، نتيجة لديناميكية الحركة فى مجالات الحياة المختلفة ، وعنصرا جوهريا فى مفهوم عالمية الاسلام .

فقد جاء فى القرآن الكريم آيات كثيرة رسمت قضايا كلية فى مجالات الحياة المتعددة ، نذكر منها على سبيل المثال قوله تعالى : **« وأمرهم شورى بينهم »**(٣٤) ..

فهذه قضية توضح أن الاسلام يحث على ألا يكون الأمر فى المجتمع ديكتاتوريا ، بل ينبغى أن يقوم على أساس الشورى ، ولم يحدد لهذه الشورى صيغة معينة ، بل تركها لظروف كل عصر ، وطبيعة كل بيئة .

كذلك لم يحدد فى قوله تعالى : **« قل من حرم زينة الله التى أخرج**

---

(٣٤) الشورى : ٣٨ .

لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا »(٣٥) أنواع الزينة ، أو أشكالها وهيئاتها ، بل ترك ذلك لمقتضيات الزمان والمكان ، بشرط ألا يكون فى ذلك اقتراف لمعصية ، أو تناول خبيث ، كما فى قوله تعالى : **« ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث »**(٣٦) ..

فهذه وأمثالها أمور كلية وضعت الأساس الذى يحفظ كيان المجتمع ، وحددت الاطار الذى يتحرك بداخله الفقهاء والمشرعون لمواجهة متطلبات العصر والبيئة .

وخلاصة القول : ان الاسلام جاء موافقا لقوانين الحياة ، فرسم قواعد ثابتة ، وترك التفصيلات والتشريعات للفقهاء ، لتكون مجالا للاجتهاد والاستنباط ، سعيا وراء الصيغ القانونية التى تلائم بيئاتهم وعصورهم ، وعلى هذا الأساس وجهت الدعوة الى كل من على وجه الأرض ليدين بالاسلام ، لأنه النظام الوحيد الذى يوافق طبيعة الحياة وحركتها المستمرة ، ويتلاءم مع ما تتطلبه من قواعد ثابتة ، تقوم عليها هذه المتغيرات ، كى لا تنهار أو تتبدد معالمها ، وسط هذا السيل الجارف من الأحداث المتجددة .

فدعا رسول الله ﷺ الناس كافة الى الدخول فيه قائلا : **« يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا »**(٣٧) ..

كما بعث بكتبه الى الملوك يدعوهم الى الاسلام ، فقد قالوا : ان رسول الله ﷺ لما رجع الى المدينة من الحديبية ، فى ذى الحجة سنة ست ، أرسل الى الملوك ، فخرج ستة نفر منهم فى يوم واحد ، وذلك فى المحرم سنة سبع ، فبعث كتابا الى النجاشى ملك الحبشة ، والى هرقل عظيم الروم ، والى المقوقس عظيم القبط ، والى كسرى عظيم فارس .

وأرسل كذلك الى غيرهم على حدود الجزيرة العربية ، فأرسل الى

---

(٣٥) الاعراف : ٣٢ . (٣٦) الاعراف : ١٥٧ .
(٣٧) الاعراف : ١٥٨ .

أهل نجران وسائر من ينتحل دين النصرانية فى أقطار الأرض يدعوهم الى الاسلام ، وأنه رسول الله الى الناس كافة ، وبهذا وجه الأمة من بعده الى فكرة الدعوة الى الاسلام ما وجدوا الى ذلك سبيلا .

وسار المسلمون من بعده على هذا النهج ، فحملوا الاسلام الى الناس قاطبة فى جميع أركان المعمورة ، وما زالوا ينادون الناس فى كل مكان ، مبينين لهم أن الاسلام لا يختص بجيل دون آخر ، وليس لطائفة دون غيرها من الطوائف ، ولم يكن دين شعب بعينه ، بل هو دين الناس كلهم .

ولهذا جاء مطابقا للقانون الأساسى فى حياتهم ، وملائما لأسلوب معيشتهم فى كل زمان ومكان .

* * *

obeikandl.com

٢ ـ الاسلام والحضارة

(أ) جاء الى أحد المسلمين الذين يعيشون فى بلد متحضر ، يشكو ويتألم من أحوال المسلمين فى البلاد الاسلامية ، ولما سألته عن سبب شكواه وتألمه قال لى :

● انى أعيش فى احدى البلاد المتحضرة ، وكلما حاولت أن أقوم بواجبى كمسلم فى الدعوة الى الله وبيان تعاليم الاسلام السمحة وشرائعه فى تكوين المجتمعات الانسانية على أسس سليمة ، قوبلت باعتراض ، لا أستطيع الرد عليه .

ـ وما هو هذا الاعتراض ؟

● يربط كثير من الناس بين واقع الشعوب الاسلامية ، وما فيها من فوضى وتخلف ، وبين الاسلام ، ويظنون أن الاسلام هو السبب فى كل ما يدور فى الشارع الاسلامى ، فالفوضى فى النظام ، واختلاط الحابل بالنابل فى شوارع المدن الاسلامية ، له آثار بعيدة المدى على الدعوة الاسلامية .

فأنت اذا سرت فى الطريق ، لا تجد مكانا تسير فيه ، وانما تقفز قفزا ، لتتخطى أحجارا وكراسى ومعوقات بشرية تجلس فى الطريق ، فلا تعرف أين حدود المشاة ، ولا أين مسار المركبات ، فالماشى يتخذ طريقه بجوار السيارة فى عرض الطريق ، والسيارة تقف على الرصيف سالبة حق المشاة .

واذا فتحت الاشارة وجدت عجبا !! فمن تسمح له الاشارة بالسير ، يقف عاجزا لأن من لا تسمح له قد أخذ حقه واعترض سبيله ، وينتج عن هذا أن الزائر الأجنبى يقف عاجزا مذهولا أمام هذا التخبط والتشابك ، بين مشاة ، يقفزون قفزا فوق السيارات وبين المركبات ، أو سيارات وعجلات بمختلف أنواعها بين بطىء وسريع ، ويدوى وآلى تتدافع وتتزاحم ، ويحاول أن يجد تفسيرا لهذه الفوضى التى لا مثيل لها فى بلده ، فلا يجد سوى أن المعتقدات التى يدين بها

هــذا الشعب هى السبب فى هــذه الفوضى ، ثم تسرع أفكاره فتمده بالنتيجة : ألا وهى أن الاسلام هو السبب فى هذه الفوضى ! ..

فكيف تصحح له هذا الاعتقاد الخاطىء ؟ ..

— هذه هى احدى المشاكل التى تقابل الداعية خارج العالم الاسلامى ، ولكن لا يجوز للمسلم أن يقف أمامها مشلولا عاجزا عن التفكير فى كيفية تصحيح هــذه الصورة الخاطئة ، بل يحاول عرض المبادىء الاسلامية من القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة ، ثم يبحث عن تفسير علمى واقعى لعدم تطبيق هــذه المبــادىء فى المجتمع الاســلامى ، بحيث يقتنع غير المسلم عقليا أن الاســلام لا ذنب له فيما تعانيه المجتمعات الاسلامية من أمراض ، بل العكس هو الصحيح أن الأمراض الاجتماعية ما تفشت بين المسلمين الا من يوم أن نســوا تعاليمه ، وأداروا لهــا ظهورهم .

وخذ على سبيل المثال ما ذكرته من الفوضى ، التى تسيطر على سلوك المسلمين وأضف اليه ما نراه — ويراه الأجنبى معنا — من اختفاء النظافة فى مجتمعنا ، فأنت ترى القاذورات فى كل ركن ، وعلى كل رصيف ، وفى قارعة كل شــارع ، ويضاف اليها أيضا عدم احترام المواعيد ، سواء بين الأشخاص ، أى فى العلاقات الفردية ، والاجتماعية ، أو على المستوى الرسمى ، أى فى وســائل الخدمات العامة ، سواء أكانت مواصلات ، أو غيرها من الأمور التى تتعلق بالجمهور .

هذه الظواهر الثلاث ، هى من علامات تخلف المجتمعات الانسانية ، فأينما وجدت شعبا لا يعرف النظام ، ولا يحافظ على النظافة ، ولا يلتزم بالمواعيد ، فاحكم عليــه بالتخلف لأن هــذه الأعراض دليل على مرضه ، والمريض لا يستطيع أن ينتج فى المجالات الأخرى ، وبالتالى لا يمكنه أن يبنى حضارة ، وعلى العكس من هــذا ، فأى مجتمع يحافظ على النظام والنظافة ، ويلتزم بأداء الواجبات فى مواعيدها ، فهو شعب متحضر ، قادر على الاسهام فى بناء التقدم الانسانى .

ولهذا عنى الاسلام بتربية المسلم تربية تجعله يؤدى من الأعمال ما يجعله يميل تلقائيا الى حب النظام ، والتمسك بالنظافة ، والالتزام بأداء الواجبات فى مواعيدها المقررة .

● كيف ذلك ؟

ــ سوف أبين لك هذا المعنى فى الحديث القادم ان شاء الله ، فحتى هــذا الحين أستودعك الله ..

* * *

(ب) وصلنا فى حديثنا الســابق عن ظواهر الحضارة ، الى أن هناك ظواهر ثلاث لو وجدت فى مجتمع لدل ذلك على أنه شــعب متحضــر له القدرة على الاسهام فى بناء الحضارة الانسانية فى جميع مجالاتها المــادية والروحية .

وهــذه الظواهر الثلاث هى :

النظام ، النظافة ، احترام المواعيد ..

● فهل حث الاسلام المسلم على الالتزام بما يؤدى الى ظهور هذه الأعراض فى المجتمع الاسلامى ؟

وكيف كان أسلوب التعاليم الاسلامية فى حمل المسلم على التحلى بهذه الصفات الثلاثة ؟

هل اقتصر على الوصايا النظرية ، أم فرض من الواجبات العملية ما يساعد على غرسها فى نفس المسلم ، لتصبح أشبه بالعادات التى لا تنفصل عن غرائزه ، وبالتالى يؤديها تلقائيا دون رقيب ، ويحافظ عليها فى كل لحظة ، بحيث تصبح جزءا من تصرفه الغريزى ؟ .

ــ فلنأخذ أولى هذه الصفات ، وهى صفة النظام ، ولنبحث فى تعاليم الاسلام عما يحث عليــه .

ان الاســلام حث على النظام بأسلوب لا يوجد مثيل له فى أى نظام تربوى فى العالم ، اذ عندما فرض الصلاة خمس مرات فى اليوم ، قرنها بما يغرس حب النظام فى نفس المسلم ، فنحن نسمع الامام عند اقامة الصلاة ، يقول للمأمومين :

« سووا صفوفكم ، فان تسوية الصفوف من تمام الصلاة ، ان الله لا ينظر الى الصف الأعوج » .

فلو فهم المسلمون ما تدعو اليه هـذه الجملة لأصبحوا أكثر الأمم حفظا النظام ، وأشدهم حياله ، ولصار لهم نظام لا يضارعه أى نظام فى العالم ، وذاك أن المسلم اذا أدرك أن شروط قبول الصلاة أن تؤدى تامة — وهو ما يتمناه ، ويرجو من الله أن يقبلها — لحرص على ألا يقف فى الصلاة وهو متقدم عن جاره سنتيمترا واحدا .

واذا أدرك هـذا المعنى ، حاول جاهدا أن يقف مساويا لمن يجاوره فى الصف .

واذا عرف أن الله لا ينظر اليه اذا كان وقوفه غـير مسـتو فى الصلاة ، حرص حرصا شديدا على أن يكون الصف فى الصلاة مستويا استواء لا عوج فيه .

فاذا فعل ذلك فى اليوم خمس مرات ، تعود عليـه ، فيتعمق الاحساس بالنظام فى نفسه ، فيحبه ، ويحرص عليـه ، بل لا تتعود عينيه الا عليـه ، فاذا رأى غيره أحس بالضيق والضجر ، وثارت نفسه ، فلا تهدأ الا بتصحيح ما يراه خطأ ، وذلك هو منتهى الدقة فى النظام والمحافظة عليـه ، فاذا وصل مجتمع الى هـذه الحالة ، لا تجد منه الا حياة منظمة فى سلوكه وشوارعه .

فلو فهم المسلمون تعاليم الاسلام ، وأدركوا مغزاها فى هـذا الجانب ، لساد النظام شوارعهم ، ولشمل الانسجام حياتهم ، ولرأيت كل فرد يأخذ طريقه الصحيح فى الشـارع ، دون تزاحم وبغير تدافع بين العربات والمشاة ، ودون أن تتصادم المركبات فالكل يعرف مساره ، والكل يلتزم حدوده .

ألا ترى معى ، أنه لو حدث هـذا ، لكان ذلك من أكثر الوسـائل فى الدعاية للاسـلام ؟

فيا أيها المسلمون : لا تسيئوا الى دينكم ، ولا تشوهوا مظهر الاسلام فى مجتمعاتكم ، فالتزموا النظام الذى دعا اليه الاسلام ، وحث عليه ، وذكركم به فى صلواتكم الخمس ، حتى تكونوا صورة حسنة للاسلام أمام من يراكم من غير المسلمين ، لعل الله يشرح بذلك صدورهم للاسلام •

وفقكم الله لما فيه الخير للاسلام والمسلمين •

* * *

(جـ) بعد أن وضحنا فى الأحاديث السابقة ، مظاهر الحضارة الثلاث : وهى النظام ، والنظافة ، والالتزام بالمواعيد ، وبينا كيف حث الاسلام على النظام ، ودعا اليه ، وفرض من وسائل العبادات ، ما يغرس حب النظام فى النفس ، الى درجة أن يصبح من الغرائز التى لا يتخلف عن أدائها انسان ، فيصبح من العادات الاجتماعية التى لا يهملها الناس فى حياتهم الاجتماعية •

سنتناول فى حديثنا اليوم ، موضوع النظافة ومكانها فى الاسلام ، ومدى أهميتها فى أركان العبادات الاسلامية •

وقبل أن نخوض فى هذا الحديث ، أحب أن أشير الى أن مظهر الشعوب الاسلامية فى هذا الجانب يسىء الى الاسلام ، فأكوام القمامة التى تلقى فى شوارع كثير من العواصم الاسلامية ، تسىء الى الاسلام اساءة بالغة ، ذلك أن السائح الأجنبى يربط بين المظهر العام للمجتمع وبين الاسلام ، كما بينت ذلك فى حديث سابق ، فلو كانت شوارعنا نظيفة ، لكانت دعوة غير مباشرة الى الاسلام ، ولو رأى غير المسلم ما يؤذى العين ، ويشوه جمال المدينة من قاذورات وفضلات فى كل ركن من أركان الشارع لكان ذلك تنفيرا وصدا للأجنبى عن قبول الاسلام كنظام يربى المجتمع فى هذا الجانب •

● فهل أهمل الاسلام الدعوة الى النظافة ، فخلت تعاليمه وأساليبه التربوية مما يدعو اليها ، ويغرس حبها فى نفوس المسلمين ؟

أم دعا اليها وحث عليها ؟

obeikandi.com

وما هو أسلوب الدعوة اليها ؟

أهو أسلوب جانبى فرعى ، أم جاءت الدعوة الى النظافة فى صلب تعاليمه فاحتلت ركنا أســاسيا فى العبادات وكانت جزءا مما يكرر كل يوم حتى تصبح النظافة عبــادة وغريزة فى نفس المسلم ، لا يمكن اهمالها أو التفريط فيها ؟

— تعالوا معى لننظر ما فى السلام من أركان تربى فى المســلم حب النظافة ، وتؤكد أهميتها فى نفســه : فرض الاسلام الوضوء ، كشرط أساسى لصحة الصلاة : وهو كما أنزله الله فى كتابه العزيز عبارة عن غسل اليدين الى المرفقين ، والوجه ، والرأس ، والرجلين ؛ يقــول الله تعــالى : **« يا أيهــا الذين آمنوا اذا قمتم الى الصــلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامســحوا برؤوســكم وأرجلكم الى الكعبين »**(١) ..

هــذا بالاضافة الى سنن الوضوء وهى : المضمضة والاستنشاق ، ومسح الأذنين .

وبعبارة مجملة فالوضوء هو : غسل وتنظيف جميع الأطراف التى تتعرض فى كل لحظة للأتربة العالقة فى الجو .

كذلك اشترط فى صحة الصلاة : نظافة البدن ، والملابس ، وخلوهما من النجاسة وكذلك طهارة محل الصلاة .

كما وصى الاســلام أيضا بالغسل يوم الجمعة قبل الذهاب الى المســجد ، وفرضه للتطهر من الجنابة ، كذلك ذكرت كلمة الطهارة ، ومشتقاتها فى القرآن الكريم أكثر من خمس وعشرين مرة ، كل ذلك اشارة وتلميحا الى وجوب المحافظة على طهارة البدن ، والملابس ، والمكان

فلو أدرك المسلمون ما ترمى اليه هــذه التعاليم ، وما تدعو اليه لكانوا أكثر الأمم محافظة على النظافة ، ذلك أن من يلتزم دينيا بتنظيف نفســه فى اليوم خمس مرات ، وتنظيف مكانه حتى لا تصاب ملابسه

(١) المائدة : ٦ .

بأذى فتفسد صلاته ، تصبح عادة المحافظة على نظافة نفسه وعلى من حوله من أماكن عادة متأصلة عنده ، لا ينفك عنها ، ولا يهمل النظافة اطلاقا بل أكثر من هذا تراه يفر من الأماكن القذرة ، حتى لا تصاب ملابسه فتفسد صلاته ، ويستنكر كل ما من شأنه أن يلوث المكان الذى يمر به ، أو يجلس فيه ، ويقاوم كل من يهمل فى النظافة ، فاذا وصل الأمر الى هذا الحد وجدت العواصم الاسلامية نظيفة ، بل لرأى زائرها أنها أكثر المجتمعات الانسانية محافظة على النظافة .

ومن هذا يتبين أن ما يشاهد فى بعض العواصم الاسلامية من اهمال للنظافة هو نتيجة عدم فهم المسلمين لتعاليم الاسلام التربوية .

فيا أيها المسلمون : كونوا نماذج صالحة للدعوة الى الاسلام ، وذلك بالمحافظة على النظافة ، تنفيذا لروح التعاليم الاسلامية .

يروى أن رسول الله ﷺ ، ذم ذات يوم الكبر والمتكبرين ، فسأله رجل قائل : يا رسول الله .. انى رجل أحب أن أكون نظيفا ، وثوبى نظيفا ، أفى ذلك كبر ؟ فقال له رسول الله ﷺ : « لا .. ان الله جميل يحب الجمال » ..

فمن يحافظ على النظافة ، يحبه الله ورسوله ، لأنه طبق روح التعاليم الاسلامية ، ومن يهملها غضب الله عليه ، لأنه بهيئته غير النظيفة أعطى مثلا سيئا للمجتمع الاسلامى ، مثلا ينفر غير المسلمين من التقرب الى الاسلام .

فحافظوا أيها المسلمون على نظافة أبدانكم ، وملابسكم ، ومساكنكم ، وشوارعكم ، تضربون المثل الأعلى للاسلام فى دعوته وحثه على ما يعود على البشر بالخير والسعادة .

وفقكم الله لما فيه الخير .

* * *

(د) بعد أن انتهينا فى الأحاديث السابقة من بيان موقف الاسلام من النظام ، والنظافة وهما من المظاهر الأساسية للحضارة ، وبينا : كيف

فرض الاسلام من العبادات ما يغرس هاتين الصفتين فى نفوس المسلمين ، بحيث لو فهمها المسلم وأداها كما يجب أن تكون ، لأصبحت النظافة والنظام من عاداته التى لا يستطيع اهمالها ، بل لصارت من الغرائز التى يؤديها تلقائيا ، دون مشقة أو ميل الى التخلى عنها •

واليوم نريد أن نتحدث عن المظهر الثالث من مظاهر الحضارة ، ألا وهو : احترام المواعيد ، وبتعبير آخر : الدقة فى تأدية الأعمال فى مواعيدها ، والالتزام بما يعلن من جداول زمنية فى جميع مجالات النشاط الاجتماعى •

● كيف يكون ذلك من مظاهر الحضارة ؟

— ليس هذا من مظاهر الحضارة فقط ، بل من أهم الركائز الأساسية — ان لم يكن أهمها — التى يقوم عليها بناء الحضارة الانسانية ، ذلك أن الانتهاء من تجهيز السلع فى مواعيدها يسهل أمورا كثيرة فى مسيرة التقدم الحضارى ، وتأخيرها يشيع الارتباك فى سير عجلة التقدم ، اذ أن ما يترتب على هذا التأخير يصاب بالعجز والشلل ، فتعجز الأمة عن التقدم فى طريق بناء حضارتها • وقل مثل ذلك فى تأخير القطارات ، والمركبات العامة ، ومصالح الناس فى دواوين الحكومة ، وبين مكاتب الشركات ولادراك مدى أهمية هذا الجانب فى حياة الأمم والشعوب ، يكفيك أن تتصور مثالا بسيطا ، يتصل بك اتصالا مباشرا ، تخيل أنك وضعت برنامجا لانجاز بعض المهام الخاصة ، ورتبته ، وحددت لكل عمل زمنا معينا ، يترتب اللاحق فيه على انجاز السابق ، وبدأه فى انجاز هذه المهمة جزءا جزءا ، فلو تعثر انجاز احداها بسبب تراخى ، أو اهمال بعض الذين يعاونوك فى أداء هذه المهمات ، لارتباك كل ما يلى هذا الذى تأخر انجازه ، وربما ينتج من هذا الارتباك انهيار البناء كله ، ويحتاج هذا الى وقت مضاعف لاعادته مرة ثانية ، مما يؤخر الانتاج ، وبالتالى يعيق التقدم الحضارى •

وقس على هذا كل تأخير فى جميع المجالات ، فالتأخير فى

القطارات ، والاهمال فى المواصلات داخل المدينة ، وبينها وبين المدن الأخرى ، والبطء فى انجاز أعمال الناس فى دواوين الحكومة ، كل هذا يصيب المجتمع بالشلل ، فيعجز عن الحركة ، ويتأخر عن ملاحقة الأمم المتقدمة ، وهــذا هو الداء العضال ، الذى أصيبت به معظم المجتمعات الاسلامية ان لم يكن كلها • وينسبه أعداء الاسلام الى الاسلام وهو منه براء ، بل وضع من التشريعات ما يعود المسلم على احترام المواعيد وانجاز الأعمال فى أوقاتها المحددة ، وأزمانها المرسومة لها ، فانظر مثلا الى الصلاة ، لم يترك الله الفرد يؤديها متى شاء وكيف يشاء ، بل وضع لها زمنا محددا لو لم تؤد فيــه لخرجت عن وقتها ، وفى ذلك ذنب ، بل أن بعض الفقهاء أفتى : بأن الله لن يقبل الصلاة ، التى تؤدى خارج وقتها بسبب الاهمال •

أليس فى ذلك حمل للمسلم على أن يتعود أداء الأعمال فى وقتها المحدد دون ابطاء أو تأخير ، فقــد روى أن أفضل الصــلاة ما أدى فى أول الوقت ، وهــذه اشــارة الى عدم التأجيل فى الأعمال ، فلو أن المسلمين أدركوا مغزى هذا التشريع لكانوا أشد الأمم دقة فى انجاز الأعمال فى أوقاتها المحددة ، فتوبوا الى الله أيها المسلمون ، ولا تهملوا فى انجاز الأعمال فى مواعيدها ، حتى تظهروا بمظهر المسلمين المخلصين لدينهم ، فتصبحوا نماذج متحركة ، تدعو غير المسلمين بطريق غير مباشر الى الدخول فى الاسلام ، لأن سلوككم الطيب فى هــذا المجال ، سوف يحمل غير المســلمين على التفكير فى اعتناق هــذا الدين الذى يربى أتباعه هــذه التربية التى تعود على المجتمع بالخير والسعادة •

* * *

(هـ) اذا حدد العلماء معنى كلمة الحضارة بأنها : مجموع ما خلفته الأمة الاسلامية من آثار فكرية وفنية فى جميع المجالات المادية والمعنوية ، فان الأمة الاسلامية قد فاقت كل الأمم السابقة واللاحقة فى هذا المجال •

اذ أبدع المسلمون فى جميع نواحى الحياة ، فأسهموا بقسط وافر فى بناء حضارة انسانية داخل اطار أخلاقى متين •

● كيف ذلك ؟

— تعال معى ، لنستعرض فى ايجاز معالم الحضارة الاسلامية فى المجالات المختلفة٠ ولنبدأ بمجال التعليم الذى هو اللبنة الأولى والأساسية فى بناء أى حضارة ، فقد أنشأ المسلمون المدارس ، والأكاديميات العلمية فى وقت نشر الجهل أجنحته فى جميع أرجاء الأرض ، فانتشرت المدارس الاسلامية ، منذ القرن العاشر الميلادى فى جميع مناطق العالم الاسلامى ، من الأندلس عبر أفريقيا حتى بلاد فارس ، وكانت المدارس العليا فى الأندلس منبعا أمد الحياة الثقافية والأوروبية بروافد حملت معها الخصوبة الفكرية التى هى أصل الحضارة الغربية الموجودة الآن ٠

وفى مجال الهندسة توصل العلماء المسلمون الى رسم كتابة الأعداد ، فكان أساسا للرسم الأوروبى الحالى للأرقام الحسابية ، وظل الجدول الفلكى الذى وضعوه هو المرجع الوحيد لعلماء أوروبا لعدة قرون ٠

وفى مجال الطب ، وصل المسلمون بفن العلاج الى مستوى الكمال ، فأنشأوا أول مستشفى فى بغداد فى عهد الخليفة هارون الرشيد ، ثم ما لبث أن افتتحت مستشفيات مماثلة لها فى جميع أنحاء الدولة الاسلامية ، وكان أشهرها « بيمارستان » دمشق ، حيث توجه اليه الأطباء للحصول على الدرجات العلمية التخصصية ، كما أمه الطلاب للتدريب على ما يحتاجون اليه فى امتحاناتهم ٠

وكانت رعاية المرضى سببا فى اكتشافات جديدة فى مجال الأدوية ، ذلك المجال الذى أصبح فى ذلك الوقت علم المسلمين الذى لا ينازعهم فيه أحد ، اذ اكتشفوا العديد من المستحضرات الطبية ، واستعملوا كثيرا من الأعشاب فى علاج المرضى ؛ فأثروا هذا المجال باختراعاتهم العديدة ، كما ظهر العديد من المراجع الطبية فى هذه الحقبة الزاهرة فى تاريخ الطب الاسلامى ، ثم انتقل هذا كله عبر أسبانيا الى أوروبا فكان أسس علم الطب فى مدارسها العليا لعدة قرون ٠

● أراك تركز دائما على أن الحضارة الاسلامية هى منبع الحضارة الحالية ، فهل يعترف الأوربيون بذلك ؟

ـ يعترف كثير من علماء أوروبا بذلك ، وان أردت دليلا فاسمع ما قاله « جوتشـــالك » فى كتابه « الاسلام قوة عالمية متحركة » ..

● وماذا قال ؟

ـ قال « جوتشالك » : « أسهم الشرق الاسلامى منـــذ القرن الثامن الميلادى فى الحضارة العالمية بانجازاته الضخمة فى مجالات المعرفة ، ولم يتوقف تأثيره عند قرن معين ، بل ظل يتقلب فى صور مختلفة عبر القرون حتى عصرنا الحالى ، اذ امتد التأثير الفكرى لهذه الحضارة ـ حتى بعد التدهور السياسى للدولة الاسلامية ـ فى جميع أنحاء العالم ، فأنتج فى مجالات عديدة لم تبحث جوانبها حتى الآن » ..

ثم يقول : « لو لم يقم العرب بهذا المجهود الضخم فى مجال المعرفة ، لفقدنا كثيرا مما نتمتع به الآن فى عالم الثقافة من العـــلوم والمعارف ، أو لتأخر على الأقل انتفاعنا دهورا طويلة ، فقد وصلت الحضارة الاسلامية الى أوروبا عن طريق أسبانيا ، فدفعتها الى تطور ذاتى فيما بعد .

● تحدثت عن جهود المسلمين فى مجال المعرفة ، ولم تبين لنـــا انجازاتهم فى عالم الصـــناعة والفن ، وهى مرحلة تالية للثقافة فى كل حضارة .

ـ ذلك سيكون موضوع حديثنا فى المرة القادمة ان شاء الله .

* * *

(و) تحدثنا عن بعض ملامح انجازات الحضارة الاســـلامية فى مجالى المعرفة والطب ، ورجوتك أن تبين لنا ملامح الفن والصـــناعة فى الحضارة الاســـلامية .

ـ نعم .. استلهم الفن الاسلامى أفكاره من الفنون السابقة له ، ولكن ما أخذه من هذه الفنون المختلفة أعاده فى شكل اتخذ طابعا مختلفا كل الاختلاف عن أى فن سبقه ، فقد عبر عن اتجاه اسلامى خالص ، وحمل بصـــمات الروح الاســـلامية التى تخضع لارادة الله الذى حدد فى اللوح المحفوظ مصير العالم ككل ، وقدر لكل كائن حى قدره

على حدة ، فما يباشره الانسان من أعمال هى فى واقع الأمر منسوبة الى الله .

وفى داخل هذا الاطار ، أنتج المسلمون فنا رائعا ، يستطيع كل انسان ادراكه فى المساجد حيث زينها الفنانون برسومات رائعة وزخرفوها بأشكال فى غاية الروعة والاتقان بهرت — وما زالت تبهر — كل من شاهدها حتى عصرنا الحاضر . وان دل ذلك على شىء ، فانما يدل على ذوق واحساس بالجمال ، يضاهى — ان لم يفق — ما ينسب الى العالم المتحضر اليوم باعتباره من السمات الأساسية للتقدم فى المجتمع وازدهار حياة الفرد فيه .

أما فى مجال الصناعة ، فقد برع المسلمون فى العديد منها ، اذ بلغت صناعة النسيج الفاخرة عصرها الذهبى فى عهد الدولة الصفوية ، عندما طلبت قصور أوروبا ذلك النوع المرصع بالذهب والفضة من أصبهان ، وظلت تستورده منها ابتداء من عام ١٥٠٢ على امتداد مائتين وخمسين عاما .

كما احتلت صناعة السجاد على امتداد التاريخ الاسلامى مرتبة عالية ، وظل الشرق حتى اليوم أكبر مورد سجاد للعالم ، وكان السجاد التركى أوسعها انتشارا فى العهد العثمانى ، ولا زال مطلوبا فى كل أنحاء العالم حتى اليوم بجانب الفارسى والقوقازى .

كذلك أنجزت البلاد الاسلامية فى مجال صناعة المعادن انجازات رائعة ، كما كانت بلاد فارس وطن صناعة الكريستال والزجاج ، ثم انتشرت فى جميع البلاد الاسلامية ، كما ازدهر فن العاج فى الأندلس وصقلية ، ثم انتشر من هناك فعم جميع البلاد الاسلامية ، ولا تنس صناعة الأخشاب ، ويكفيك دليلا على هذا رؤية ما فى المساجد من أشكال هندسية رائعة للمنابر ، ومشاهدة ما فى القصور والمتاحف من شرفات وأبواب وشبابيك ، تكاد تنطق من فرط روعة أشكالها الهندسية ، ولا تسل عن الفن المعمارى الاسلامى ، فالمساجد والقصور تنبئك عن الكثير منها .

وأظن أن هـذا كافيا فى اعطائك صورة مصغرة جـدا للحضارة الاسلامية ، وقد اضطررت الى الايجاز الشديد لضيق الوقت .

● أرجو ألا تترك هذه النقطة قبل أن تبين لى مدى قدرة المسلمين على تسويق منتجاتهم ، لأن هـذا يلقى ضوءا على ما يلاحظ اليـوم من تفوق الأوروبيين علينا فى مجال التسويق والتجارة .

— يجب أن تعلم أن المسلمين كانوا متفوقين فى المجال التجارى ، يشهد بذلك أحـد الأوروبيين فى معرض حديثه عن ازدهار التجارة فى العالم الاسلامى فى عصر لم يكن لها أثر يذكر فى أوروبا ، فقد قال بالحرف الواحد :

« بينما كانت الطبقات الحاكمة فى أوروبا تنظر الى التجارة نظرة ازدراء واحتقار سيطر العالم الاسلامى على شئون التجارة ، فأصبح التبادل التجارى محتكرا فى أيدى المملكة الاسلامية . اذ لم يكن بين أقطارها الشاسعة حواجز جمركية ، ولا حدود مانعة أمام تبادل البضائع اللازمة لضرورة الحياة ، فازدهر الاقتصـاد فى ظل قواعد التجـارة وشـئون المواصلات التى بلغت حد المثالية لدرجة أن النشاط التجارى سار فى البر والبحر بأقصى سرعة دون هدوء أو توقف ، واستطاعت العقلية التجارية عند التجار المسلمين فى ذلك الوقت الحصـول على أرباح طائلة » .

لعل هـذه الشـهادة من أوروبى تجيب على ما فى ذهنـك من استفسارات حول هـذا الموضوع .

* * *

(ز) فيم تحب أن نتحدث اليوم ؟ ..

● لقد ذكرت أن الأمة الاسلامية . تفوقت على الأمم السـابقة واللاحقة فى التقدم الحضارى ، مع أننا نرى اليوم أمما قطعت شوطا كبيرا على طريق الحضارة ، فهل يمكن أن توضح لى جانب تفوق الحضارة الاسلامية على الحضارة الحديثة ؟ .

ـ نعم •• يمكنك أن تفهم ذلك اذا عرفت معنى التقدم •

● وما معنى التقدم ؟ •

ـ التقدم نوعان : تقدم مادى ، وتقدم انسانى •

فالتقدم المـادى : هو ما تراه من اختراعات حديثة وتكنولوجيا متقدمة ووسـائل مادية معقدة ، أى هو السـيارة التى تسـتعملها ، والطائرة التى تنقلك الى الأماكن البعيدة فى أسرع وقت وغـير ذلك مما تستعمله فى المجالات المـادية ، والأمم الحديثة قد تقدمت بلا شك فى هـذا المجال تقدما لم يسبق له مثيل •

أما التقدم الانسانى : فهو بلوغ الانسانية سن الرشد فى السلوك والمعاملات ، فلا يستغل الانسان ما أنتجه العلم فى التدمير والتخريب ، بل فى البنـاء والتعمير ، ولا تسيطر عليه المـادية ، فتبعث فيه حب الذات ، فلا يطغى على حقوق الغير ، ولا يبخل بالعطاء لمجتمعه • فهو انسـان سوى بلغ سن الرشد فى علاقاته مع الدولة ، ومع بنى وطنه ، لأن التقدم منحه استقامة فى التفكير ، وفى العواطف ، والسـلوك ، فلا يبغى الا الخير فى تجـاربه العلمية والعملية وفيما توصـل اليـه من اختراعات ، وقد توفرت هـذه الناحية فى الحضـارة الاسـلامية فميزتها عن جميع الحضارات التى ظهرت حتى الآن على سطح الأرض •

● ما مدى تأثير التقدم الانسانى على الانتاج المـادى للحضارة ؟

ـ لا يمكن بيان هـذا فى الوقت القصير المسموح به لنا ، ولكن سأتلو عليك ما قاله أحـد العلمـاء الأوروبيين ، حول الصلة بين التعاليم الروحية والحضارة المـادية ، يقول المفكر الانجليزى : « لا يساورنى أدنى شك ، فى أن الحضارة التى ترتبط أجزاؤها برباط متين ، وتتماسك أطرافها تماسكا قويا ، وتحمل فى طياتها عقيدة مثل الاسلام ، لا ينتظرها مستقبل باهر فحسب ، بل ستكون أيضا خطرا على أعدائه •

ومن الممكن أن يعارض المرء هـذا الرأى : بأن الاسـلام فقد سيطرته على بعض الأشياء المـادية ، وخاصـة ما يتصل بالحرب ، فهو لم يلحق بالتقدم التكنولوجى الحديث •

لا أستطيع أن أدرك ، لمـــاذا لم يعوض الشرق الاسلامى ما فاته فى هــذا الميدان ؟

فلا تحتاج علوم الهندسة الحديثة الى طبيعة عقلية خاصة ، بل يتطلب الالمــام بها والتفوق فيها الى الخبرة وتوجيه الخبراء .

ومن الأمور المؤكدة ، أنه غالبا ما يحدث أن تكون حضارة أخرى ، ذات منزلة عالية فى التقدم التكنولوجى ، أقل درجة من حضارة لم يبلغ بعد تطورها فى هــذا المجال ما بلغته الأولى .

اذن ، فهناك احتمال كبير أن يصبح شعب ظهر حتى الآن أن مواهبه فى الناحية التكنولوجية ضعيفة ، فى المستقبل ســيداً على شعب آخر استولت التكنولوجيا على حواسه ومشاعره ـــ فلم ينقذه أحد ـــ وتحكمت فى ســلوكه النظريات التى تسلب الانســان الاحساس بالطبيعة . لمــاذا لا يتعلم العالم الاســلامى ما تعلمناه فى مجال التكنولوجيا ؟ وفى مقابل هــذا ، سوف يكون من الصعب علينا استعادة التعاليم الروحية ـــ وهو من العوامل الأساسية لوحدة أوروبية ـــ التى فقدتها المسيحية ، بينما لم يزل الاسلام يحافظ عليها » .

* * *

obeikandi.com

٣ ــ عناصر القوة فى الاسلام

(أ) ان عناصر القوة التى وهبها الاسلام للمسلمين كثيرة ومتعددة ، لا نستطيع حصرها فى الوقت الضيق المتاح لنا ، ولذا فاننا سوف نتحدث بايجاز عن أربعة عناصر رئيسية منها فى الوقت الحاضر ، وهى : الموقع الاستراتيجى ، والموارد المادية ، والكثافة البشرية ، والرابطة الروحية بين المسلمين •

أما الموقع الاستراتيجى فيسكن المسلمون منطقة من أهم المناطق فى العالم ان لم تكن أهمها ، ولا توجد منطقة فى العالم تحولت تحولا جذريا بعد الحرب العالمية مثل منطقة الشرق الاسلامى ، التى يسيطر فيها المسلمون على الطريق العالمى الممتد من شمال افريقيا بامتداد شاطىء البحر الأبيض المتوسط الى الهند ، وجنوب آسيا حتى الشرق الأقصى ، اذ لعبت هذه المنطقة ــ ولا زالت ــ دورا هاما على مسرح السياسة العالمية • فقد عرفت أهمية العالم الاسلامى على مدى القرون الطويلة ؛ ذلك أنه يمثل جزءا من شبكة المواصلات العالمية • لأن الطرق العالمية الكبرى من الغرب الى الشرق الأقصى ، تمر بأرضه ، فهو يسيطر عليها ويتحكم فيها ، وبالتالى يلعب دورا هاما فى مسار السياسة العالمية والتجارة الدولية •

لم يحتل العالم الاسلامى مكانا أسمى ، ولا أوضح أهمية ، ولا أحسن وصفا ، مما ناله عندما أقيمت شبكة مواصلات جوية من أوروبا الى الشرق الأقصى • ومنها الى وسط وجنوب القارة الافريقية • فاحتلت مصر ، وهى زعيمة العالم الاسلامى ، بأزهرها ، وتراثها الاسلامى ، المكان الأول فى عالم المواصلات الجوية ، والنقل بالطائرات • لأنها نقطة ربط فى هذا المجال ، ولم ينل أى مكان فى العالم مثل هذه الدرجة • فشركات الطيران العالمية على اختلاف جنسياتها ومذاهبها السياسية ، تجوب أجواء الشرق الاسلامى • وتهبط فى مطاراته المتعددة ، فتربط المغرب بالشرق ، مارة بهذه المنطقة الحيوية بالنسبة للخطوط

الجوية ، التى أصبحت تنافس الطرق البحرية ، فأصبحت البلاد الاسلامية بذلك ركائز الطريق الجوى الى الهند ، واستراليا ، والشرق الأقصى ، وجنوب القارة الافريقية •

لقد أحدثت ثورة المواصلات فى القرن العشرين بعدا جديدا لأهمية العالم الاسلامى بالنسبة للتجارة الدولية ، وجعلته يحتل مركزا هاما وحساسا لجميع دول العالم ، كذلك أضفت على أجزاء العالم الاسلامى المتباعدة الأطراف حيوية ، جعلته ذا تأثير فعال فى مجال السياسة الدولية ، اذ قربت بين أطرافه المتباعدة ، فأصبح صغيرا أو متقاربا مما زاد الشعور بصلة الجوار ، التى تربط المسلمين ، وان تباعدت أوطانهم جغرافيا ، فمن فى بغداد جار لمن فى مكة ، ومن فى طهران جار لمن فى كابول •

لقد أرسى ربط الأقاليم ببعضها ، والتغلب على الحواجز — التى عاقت المواصلات فيما مضى — أسس الشعور الجماعى بمصير هذه المنطقة ، وكانت مقدمة لمشروعات جماعية فى المجالات الاقتصادية ، والسياسية ، والثقافية ، وأصبح واضحا ظهور معالم لقيام وحدة تقف على قدم المساواة مع القوى العظمى فى العالم •

بدأت بثورة المواصلات حقبة جديدة فى تاريخ العالم الاسلامى ، وسوف تشهد — كما يقول بعض الخبراء — صراعا مرا بين الشرق والغرب ، مثل الصراع الذى قرر مصير هذه المنطقة فى القرون الماضية ، والتاريخ يعيد نفسه ، فقد أدرك المسلمون مرة أخرى أنهم يحتلون مركز قوة فى العالم ، لأنهم شعروا أنهم يسيطرون على أكثر مناطق العالم حساسية ، وأهمها فى مجال المواصلات والتجارة الدولية •

* * *

(ب)حدثتكم فى الأسبوع الماضى عن الموقع الستراتيجى الذى يمثله العالم الاسلامى وبينت لكم أن بامكان المسلمين بفضل هذا الموقع السيطرة على التجارة الدولية ، وبالتالى التأثير على صنع القرار فى مجال السياسة الدولية ، واليوم سأتناول معكم موضوعا طال حوله الجدل وكثر ، واختلفت فيه الآراء وتنافرت ، ألا وهو الزيادة المطردة

فى عدد السكان فى العالم الاسلامى ، ولما كان الاختلاف حادا بين المؤيدين لتحديد النسل ، والمعارضين له رأيت أن أقرأ عليكم رأيا لكاتب أوروبى حول هذا الموضوع ، ثم أترك لكم الحكم بالتأييد أو الانكار • يقول مؤلف كتاب : « الاسلام قوة الغد العالمية » •• :

عادت الحياة الى طريق المواصلات العالمية القديمة •• واتصل الشرق مرة أخرى بالتجارة العالمية • واحتلت الطرق التى تخترق بلاده مركزا مهما وحساسا فى شبكة المواصلات العالمية ، ونتيجة لذلك التقى الشرق الاسلامى بالقوى الاستعمارية وجها لوجه ، اذ بدأت البلاد الأوروبية فى القرن الماضى تولى وجهها شطر الشرق ، فتأخذ من ثرواته ما تحتاجه صناعتها ، ولتحتكره سوقا للفائض عن حاجتها ، وبجانب هذا الوضع الذى أكسب الشرق وضعا استراتيجيا فى السياسة الدولية، يوجد لديه عنصران آخران ، يؤثران تأثيرا كبيرا فى السياسة والتعاون بين الأقطار الاسلامية ، الأمر الذى يؤدى به الى أن يصبح غدا قوة عالمية ، والعنصران هما :

الزيادة المطردة فى عدد سكانه ••

وما يملكه فى باطن أرضه من مواد خام ، تكفى لقيام صناعة تضارع مثيلاتها فى أوروبا • بل سيكون لدى الشرق فائضا من المواد الخام ، يجعله من أولى المناطق المصدرة لها فى العالم •

أى أن الزيادة المطردة فى السكان ، والمواد الخام ، هما مصدرا القوة النامية فى العالم الاسلامى •

ثم يمضى المؤلف فى الحديث عن نمو السكان فيقول :

تشير ظاهرة نمو السكان فى أقطار الشرق الاسلامى الى احتمال وقوع هزة فى ميزان القوى بين الشرق والغرب ، فقد دلت الدراسات على أن لدى سكان هذه المنطقة خصوبة بشرية ، تفوق نسبتها ما لدى الشعوب الأوروبية ، وسوف تمكن الزيادة فى الانتاج البشرى الشرق من نقل السلطة فى مدة لا تتجاوز بضعة عقود — أى عشرات قليلة من السنين — وسوف ينجح فى ذلك نجاحا ، لا نرى من أبعاده اليوم الا النذر

اليسير ، ولكى تتضح أهمية الزيادة فى السكان ، وخطر الخصوبة الطبيعية لدى سكان هذه المنطقة ، نورد هنا بعض الأمثلة ، ثم يمضى فيبين الزيادة المطردة لدى السكان فى مصر ، عام ١٨٨٧ حتى عام ١٩٣٧ ، ثم يقيس عليها ، فيتوقع أن العدد الذى يمكن أن تصل اليه مصر بعد ٤٢٥ سنة هو مليار ، ثم يعقب على ذلك قائلا :

أى أنه سيكون فى مصر أعدادا من البشر تساوى ما هو موجود الآن على ظهر الأرض ، وسيصبح فى مصر فى مدى ٩٦٨ سنة — أى أقل من ألف عام — أمة تعدادها ٩٧٣ مليارا من البشر أى أنها سوف تنمو بشريا الى درجة لا تمكنها فقط من استعمار الكرة الأرضية ، بل من استعمار أعداد من الكواكب السيارة الأخرى .

وبعد أن يبين نسب الزيادة فى السكان فى عدد من أقطار العالم الاسلامى ، يقول : لقد دفع الصراع بين القوى الأوروبية العظمى ، وبين الشعوب الاسلامية ، الى ضرورة القيام بدراسات مقارنة فى المجال السكانى للوقوف على اتجاه ميزان القوى — من الناحية البشرية — بين الطرفين ، فتوصل الباحثون الى نتيجة تدعو الى التفكير والتأمل ، فقد أثبتوا أن بين كل ١٣ر٣ من البالغين فى أوروبا ؛ يوجد شاب واحد تحت الخامسة عشرة ، أما فى مصر ، وتركيا ، وايران ، فقد أثبت الاحصاء الذى جرى فى نفس العام ، أن فيها شابا تحت الخامسة عشر بين كل ٣٨ر١ من البالغين ، وطبقا لهذه النتيجة التى تبين اختلاف نسبة الأطفال الى البالغين بين أوروبا والعالم الاسلامى ، أمكن للمرء أن يتنبأ بأن تفوق الانتاج البشرى فى المنطقة الاسلامية سوف يؤثر تأثيرا بالغا على العلاقة بين الشرق والغرب فى عشرات السنين القادمة .

لا يمكن أن يغيب عن المرء — اذا قارن أسباب القوة بين الشرق والغرب فى الوقت الحاضر — أنه سيتضاعف عدد السكان فى العالم الاسلامى ، فى مدى عشرات قليلة من السنين ، ولا ينبغى أن ينسى أن الداعين الى الأخذ بأسباب نمو القوة البشرية — عن طريق تشجيع النسل ، ومحاربة الدعوة الداعية الى تحديده — يزيدون يوما بعد يوم وأن تفوق

أوروبا فى التكنولوجيا على الشرق ينقص عاما بعد آخر ، لأن الشعوب الاسلامية اتجهت الى تطوير نفسها ، وبناء حضارتها الحديثة بالوسائل الهندسية الأوروبية وتكرس جهودها اليوم لزيادة انتاجها ، يساعدها فى ذلك وجود المواد الخام بكثرة فى بلادها .

فلو رتب المرء ما يملكه الشرق من أسباب القوة ، لبدا له أن الخصوبة البشرية ، التى تسبب النمو السريع فى زيادة عدد السكان ، تأخذ مكانا لا يستطيع المرء اغفاله بسهوله فكثرة السكان لها آثارها البعيدة ، لأنها وان كانت لا ترى أبعادها بالعين المجردة فى الوقت الحاضر ، ستحدد بطريقة حاسمة المستقبل السياسى للعالم الاسلامى ، وستكون من أهم العوامل التى يرتكز عليها أمنه وسلامته .

أيها المستمع الكريم : أتركك للتفكير فى هذا الكلام ، لتقرر بنفسك الى أى الفريقين تنحاز الى من ينادون بتحديد النسل ، أم الى من يشجعونه .. وبعد أن نترك لك وقتا كافيا للتفكير فى هذا نعود اليك فى الأسبوع القادم لنحدثك عن عنصر آخر من عناصر القوة فى العالم الاسلامى ..

* * *

(ج) تحدثنا فى المرة الماضية عن الزيادة المطردة فى عدد السكان ، كمصدر من مصادر القوة فى العالم الاسلامى ، واليوم نتناول عنصرا آخر ، ألا وهو المواد الخام فمما لا شك فيه الآن أن منطقة العالم الاسلامى لديها من المواد الخام ، ما يمكن المسلمين من بناء قوة صناعية تضارع أرقى الصناعات العالمية — ان لم تتفوق عليها — وسوف تزداد هذه الثروات فى وقت تقل فيه فى البلاد الأخرى ، مما يجعلهم يتحكمون فى توجيه الصناعة فى العالم ، وليس هذا كلاما عاطفيا دفعتنا اليه عاطفتنا نحو وطننا الاسلامى ، بل هو ما توصل اليه خبراء الاقتصاد فى العالم ، اسمع ما يقوله أحدهم :

ان تصفية امتياز البترول فى غربى آسيا ، وانتقال هذه التركة الى الدول الاسلامية ، تديرها ذاتيا ، ولا تحتاج فيها الى مساعدة أجنبية ،

وتوجه انتاجها مستقلة دون أن تخضع لادارة خارجية سيحدث فى الوقت ، الذى يصبح فيه — طبقا لما أثبتته الأبحاث الدقيقة — مخزون البترول الأمريكى ضعيفا • ويوم يقل الانتاج الغزير لهذا البترول الذى يغزو أسواق العالم اليوم ، سيحتل البترول الاسلامى — حسب التقديرات المتحفظة جدا — بعد اكتشاف باقى حقول الحزام البترولى فى غرب آسيا مركزا دوليا هاما ، وسيصل انتاجه رقما لم يعرف بعد ، ولا يستطيع الخبراء التكهن به ، لأنه قد يفوق كل تقدير •• يجب ألا نغفل عن دلالة هذا التغيير ، وتأثيره اقتصاديا فى مركز العالم الاسلامى على مسرح التبادل التجارى العالمى •

اذا كان البترول من المواد التى بعثت فى العالم الاسلامى حيوية اقتصادية ، جعله يحتل مركزا دوليا فى عالم التجارة • فان القطن يقف بجانبه فى دعم اقتصاد الدول الاسلامية ، وقد رسمت الدول الاسلامية سياستها الاقتصادية ، على أساس تصنيع موادها الخام فى أوطانها حسب احتياجاتها ، كى تتخلص من التبعية للبلاد الصناعية الغربية وهى تمضى فى هذا الطريق بأقصى ما يمكنها • فتوفر فرص العمل للسكان الذين يتزايد عددهم زيادة مطردة ، كما تقضى على احتكار العالم الغربى للصناعات التى يصنعها من المواد الخام والتى يستوردها من العالم الاسلامى ، وعليه فتصنيع المواد الخام فى العالم الاسلامى أدى الى :

(١) تحرير البلاد الاسلامية من التبعية للبلاد الغربية المتقدمة فى الصناعة •

(٢) خلق فرص للعمل وتهيئة جو اقتصادى يكفل الحياة للزيادة المطردة اطرادا كبيرا فى عدد السكان •

(٣) خفض أسعار السلع المنتجة ، لأن تصنيع المواد الخام فى مكان استخراجها يحررها من مصاريف الشحن الى البلاد الصناعية ، كذلك يساعد انخفاض أجور الأيدى العاملة فى العالم الاسلامى عنه فى البلاد الغربية على خفض الأسعار ، وهذان أمران يؤثران تأثيرا كبيرا على

أثمان البضائع المصنعة ، الأمر الذى يضع الصناعة الغربية فى مركز حرج ، اذ يلقى فى طريقها جملة من المصاعب تحمل القائمين عليها على التفكير طويلا وبعمق •

لقد ازدهرت صناعات عدة فى منطقة العالم الاسلامى ، مثل صناعة النسيج ، وصناعة التعدين (الحديد والفحم والكوك والنحاس والكبريت) وصناعة السليولوز ــ الخليت النباتية (مثل الورق والكرتون والحرير الصناعى) وصناعة الزجاج ؛ والصناعات الكيماوية وهى كلها قائمة على مواد خام مستخرجة من باطن الأرض التى يسيطر عليها العالم الاسلامى ، فهى لا تخضع لاحتكار أجنبى ولا يتحكم فيها مورد من خارج العالم الاسلامى ، فلديهم البترول ، والقطن ، والحديد ، فقد اكتشف خام الحديد فى تركيا ، وأثبتت الأبحاث أن الحقول المكتشفة من أغنى مناطق الحديد فى الكرة الأرضية ، فهو يحتوى على ٦٨٪ حديد خالص ؛ فى حين يوجد فى العلم كله منطقتان فقط ، تحتوى المادة الخام المستخرجة منها على ٦٥٪ حديد فقط ، وفى العالم الاسلامى أيضا : النحاس ، والذهب ، والزنك ، والمنجنيز ، وغيرها •

وجملة القول : ان العالم الاسلامى ، يملك من المواد الخام ، ومن الطاقة ما يمكنه من انشاء أقوى قلعة صناعية فى العالم ، فاذا فعل ذلك ، فسوف يحتل مركزا هاما على مسرح السياسة الدولية ، لأن اتخاذ القرارات السياسة فى مجال الأحداث العالمية يعتمد اليوم كثيرا على قوة الدولة الاقتصادية •

فهل يدرك المسلمون ذلك ، فيستخدموا ما وهبهم الله من طاقات ، لخدمة أوطانهم • •

أرجو أن يوفقهم الله الى ما فيه خير الاسلام والمسلمين •

* * *

(د) تحدثنا فى الأحاديث الثلاثة الماضية عن ثلاث من عناصر القوة فى العالم الاسلامى وهى : الموقع الاستراتيجى ، والزيادات المطردة فى عدد السكان ، ووفرة المواد الخام فى منطقة العالم الاسلامى ،

واليوم نتحدث عن العنصر الرابع وهو أهمها ، ألا وهو : العقيدة التى تربط المسلمين جميعا برباط واحد ، تجمعهم تحت راية واحدة ، وتصهرهم فى بوتقة واحدة ، فتقضى على أسباب التنافر والتناحر ، وتذيب بواعث البغضاء والكراهية ، وتمحو الحقد والكراهية من قلوبهم فيصبحون أمة متماسكة مترابطة ، يحب بعضهم بعضا ، ويتألم الواحد لما يصيب الآخر من سوء ، تحقيقا لقول رسول الله ﷺ : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم ، وتعاطفهم ، كمثل الجسد الواحد ، اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

ان الاسلام هو العامل الوحيد لوحدة الشعوب التى تدين به ، اذ له من القوة على تجميع الأجناس البشرية المختلفة تحت راية واحدة ما يفوق العقائد الأخرى ، فهو يزيل الشعور بالتفرقة العنصرية فى نفوسهم ، ويغرس فى أفئدتهم حبا وعطفا لبعضهم البعض مما يجعلهم قادرين على الدفاع عن أرضه ؛ وثرواته بكل ما يملكون ، يقول الله تعالى : **« واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا »** (١) . .

وقال : **« وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم »** (٢) . .

فالوحدة ، والتماسك ، والتعاطف من أهم ما تحتاج اليه الأمة فى بناء كيانها الاقتصادى والعسكرى ، بل هى الركائز التى يقوم عليها وجودها ، لأن فى التمزق ضعف ، وفى التنافر انهيار ، وفى النزاع فشل ، حذرنا الله منه فى قوله تعالى : **« ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم »**(٣).

وقد أدرك المغربيون هذه الناحية فطفقوا يبينونها لزعمائهم ، كى يضعوا أيديهم على أهم عناصر القوة لدى المسلمين ، تلك التى فقدتها

---

(١) آل عمران : ١٠٣ .

(٢) الأنفال : ٦٣ .

(٣) الأنفال : ٤٦ .

أوروبا ، ولم — ولن — تستطيع استردادها ، بينما هى عند المسلمين •
يقول باول شمتز :

قضت الحرب العالمية على الأفكار الانسانية ، ودفنتها فى ساحة القتال ، فلا يوجد اليوم مبدأ يجمع الدول الغربية على طريق العمل المشترك والتعاون لحماية مصالحها فى افريقا وأسيا ، حتى من الناحية الدينية ، اذا نظرنا من جانبها الى ما يمكن الاستفادة منه لتجميع أوروبا اذ لم يعد للوحدة وجود بين الدول الغربية •• ولم يبق لأوروبا اليوم من عوامل ارتباطها بهذا العالم الآخر ، أو من القوى التى كانت تدفعها الى التشييد والبناء سوى الخوف :

الخوف من الشعوب الآسيوية التى تهدد النظام الأوروبى •

الخوف من الشعوب الافريقية ونموها البشرى نموا مطردا ألقى الرعب فى قلوب المراقبين السياسيين •

وهكذا يرى المسلمون اليوم حالة تفكك الأوروبيين — أعداءهم بالأمس — فتستيقظ أمام هذه الصورة الثقة بالنفس ، وتزداد مطامعهم ، وينسج خيالهم آمالا عريضة يندفعون الى تحقيقها فينمو لديهم حب المغامرة ، واشعال النضال والكفاح ضد أوروبا •

وبينما تزداد صورة البلاد الغربية تمزقا ، يقترب الشرق الاسلامى من الوحدة التى ينادى بها المسلمون ، فيتفادى السقوط فى هوة الصراع السياسى التى سقطت فيها أوروبا اليوم ، ثم يستخلص باول شمتز : من ضعف الغرب فى تمزقه السياسى ، وقوة المسلمين فى تماسكهم الايمانى بالاسلام ، عودة المسلمين الى لقوة ان هم أحسنوا استثمار مواردهم الطبيعية وموقعهم الجغرافى فى العالم ، وان هم تعلموا التكنولوجيا كما تعلمها الأوروبيون فيقول : « وسيعيد التاريخ نفسه ، مبتدئا من الشرق الاسلامى ، عودا على بدء ، من المنطقة التى قامت فيها القوة الاسلامية العالمية فى الصدر الأول للاسلام ، وستظهر هذه القوة التى تكمن فى تماسك الاسلام ، ووحدته العسكرية ، وستثبت هذه القوة وجودها اذا ما أدرك المسلمون كيفية استخراجها ، والعمل على

الافادة منها، وستنقلب موازين القوى ، لأنها — أى قوة الاسلام — قائمة على أسس لا تتوفر فى غيرها من تيارات القوى العالمية ، وقد أدرك الكاتب الانجليزى « بيلوك » مدى فاعلية هذه القوة حين كتب يقول :

« لا يساورنى أدنى شك ، فى أن الحضارة التى ترتبط أجزاؤها برباط متين ، وتتماسك أطرافها تماسكا قويا ، وتحمل فى طياتها عقيدة مثل الاسلام ، لا ينتظرها مستقبل باهر فحسب ، بل ستكون خطرا على أعدائه ، ومن الممكن أن يعارض المرء هذا الرأى ، بأن الاسلام فقد سيطرته على بعض الأشياء المادية ، وخاصة ما يتصل بالحرب ، فهو لم يلحق بالتقدم التكنولوجى الحديث » ..

ولا أستطيع أن أدرك : لماذا لم يعوض الشرق الاسلامى ما فاته فى هذا الميدان ، اذ لا تحتاج علوم الهندسة الحديثة ، الى طبيعة عقلية خاصة ، بل يتطلب الالمام بها والتفوق فيها الى الخبرة وتوجيه الخبراء . ومن المؤكد أنه غالبا ما يحدث أن تكون حضارة ذات منزلة عالية فى التقدم التكنولوجى هى أقل درجة من حضارة أخرى ، لم تبلغ تطورها بعد فى هذا المجال ما بلغته الأولى .

اذن ، فهناك احتمال كبير فى أن يصبح شعب ظهر حتى الآن أن مواهبه فى الناحية التكنولوجية ضعيفة سيدا على شعب آخر استولت التكنولوجيا على حواسه ومشاعره ، فلم ينقذه أحد : وتحكمت فى سلوكه النظريات التى تسلب الاحساس بالطبيعة .

يا أيها المسلمون : لقد من الله عليكم بالاسلام ، تلك العقيدة التى لها فاعلية كبرى فى خلق الوحدة التى هى أساس كل تقدم الشعوب ، فكونوا كما أرادكم الله ، اخوانا متحابين ، كى تسودوا على من حرموا هذه النعمة الكبرى ، وتذكروا قول الله تعالى : **« ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »**(٤) ..

* * *

---

(٤) محمد : ٧ .

٤ ـ موقف الاسلام من المال

لا توجد على وجه الأرض مشكلة أكثر تعقيدا من مشكلة الانسان نفسه وعلاقته بما حوله ومن حوله، فعلى الرغم من محاولات العلماء والمتخصصين فى البحث عن أنسب الطرق وأفضلها لضمان حياة فيها استقراره نفسيا وروحيا ، وتؤمن له أسلوبا سليما نسبيا فى الحصول على ضروريات الحياة المادية ، فلا زال الاختلاف على أشده ، ولم يتمكن أى نظام من تحقيق ما يصبو اليه الانسان أو تتطلع اليه المجتمعات ، ذلك أن مشاكل الانسان معقدة ، ومتطلباته أكثر تعقيدا ، وأهدافه لا زالت بعيدة عن متناول العقل البشرى ، .. وذلك يرجع الى تعقيد الانسان نفسه ، وعدم قدرة العقل البشرى على الوصول الى فهم هذه التركيبة البشرية ، وطريقة اشباعها نفسيا وبدنيا وروحيا ، دون أن يكون لهذا الاشباع آثار جانبية على الفرد أو المجتمع .

وما نسمعه ، ونراه اليوم من تقدم علمى فى جميع المجالات ، فهو لم يصل بعد الى صيغة تجمع شمل الانسانية حول أسلوب واحد فى الحياة ، قد يقال : ان هذا من البراهين والبديهيات العلمية ، ومن يطلب أو يهدف الى جمع البشرية على مبدأ واحد أو أسلوب واحد فى الحياة ، فهو : اما غير مدرك لطبيعة الحياة الانسانية ، لنقص معلوماته، أو قصور فى تفكيره ، واما مغرق فى الخيال ، فان هذا القول يكشف جانبا من الحقيقة ، ألا وهى أن الانسان ـ مهما تطور الفكر ، وتقدمت العلوم ، وكثرت المعلومات والتقارير لا يستطيع بعقله المحدود أن يقدم شيئا يرضى أكثر الناس ، أو يتناسب مع ميولهم وطبائعهم ، لأن قدرته عاجزة عن فهم نفسه من جميع جوانبها ، وقاصرة عن ادراك متطلبات الجنس البشرى والتوفيق بينها ، بحيث يكون هناك خطأ يلتقى عنده الجميع ، ويرضى به كل الناس أو معظمهم ويحقق معظم أهدافهم ويسبغ عليهم الراحة النفسية والبدنية .

فعقل الانسان وان أثبت وجوده فى الاكتشافات العلمية ، وفى

المجالات المادية ، الا أنه لا زال عاجزا عن اجراء تقدم شامل فى مجال الانسان نفسه ، ولهذا نرى — نحن المسلمين — أن من الأضمن والأسلم فى هذا المجال ، أن نلجأ الى مصدر يمتاز عن غيره فى الحجية ، ويرتكز على قاعدة تاريخية فى اثبات صلاحيته ، وهذا المصدر : هو الاسلام ، أى ما جاء فى القرآن الكريم من مبادىء وتشريعات ، ذلك أنه وحى الله الذى يعرف أسرار البشرية ، فهو قادر على تشريع ما يوافقها ويلائمها ، وما يبدو للانسان غير هذا فهو راجع الى عدم فهمه الغاية من التشريع أو وقوعه تحت تأثير أهواء انسانية وغايات بشرية أو مطالب فردية ، وتلك أمور يتجاوزها الشرع السماوى ، لأنه للمجموع كله لا لفرد بعينه ، فلا يراعى فيه جانب فردى ، أو مطالب وقتية تتأثر بالزمان والمكان .

أما الجانب الآخر الذى يمتاز به الاسلام عن غيره ، فهو الصلاحية التاريخية ، فقد ثبت تطبيقه تاريخيا ، وأنبأتنا الأحداث التى رواها المؤرخون عن صدر الاسلام أنه حقق العدالة بين أفراد الأمة ، وأسبغ عليهم طمأنينة وأمنا ، كانتا — ولا زالتا — مضرب الأمثال فى ذلك العصر وما تلاه من عصور ، ورغم ما يقال عن أحوال المسلمين المعاصرة ، وما يشاع عن الربط بين تخلفها وانحطاطها ، وبين الاسلام ، فانه يكفى للتدليل على أن الاسلام نظام صالح لتقويم أحوال المجتمعات والأخذ بيد الضعيف منها ودفعه على طريق التقدم ، انه استطاع أن يخرج من صحراء قاحلة على أيدى عرب لم يكن لهم أدنى درجة فى التقدم ، الى آفاق العالم الواسع فيؤسس ملكا لم نر مثله فى التاريخ القديم والحديث على السواء ، ويبنى حضارة لا زالت معالمها شامخة الى اليوم ، ولا ينكر أثرها على الحضارة الحديثة ، الا جاحد للفضل ، منكر للجميل .

● اذا كانت الشريعة الاسلامية تمتاز عما عداها بهاتين الناحيتين ، فما هو موقفها من الانسان ؟ أتنظر اليه على أنه بشر له من الخصائص البشرية ما يدفعه الى أن يعيش على وجه الأرض ، مستمتعا بما فيها من لذائذ العيش وأطاييبه ؟ ، أم ترفعه عن الأرض فتطلب منه الابتعاد عن الدنيا وما فيها من متاع مادى ، وتنصحه بأن يعيش روحانيا مترهبنا

ينظر الى المال وما يحيط به ، على أنه نجس ورجس ، يجب اجتنابه ؟

ــ الانسان فى نظر الاسلام مركب من مادة وروح ، ولكل رغباته واتجاهاته ، ولذا فهو مطالب شرعا بألا يكون سلوكه مؤديا الى طغيان جانب على آخر ، فلا يستغرق فى الروحانية ويترك الجانب المادى ، كذلك لا ينبغى أن ينغمس فى المادية انغماسا يقتل فيه الجانب الانسانى ؛ وعليه فهو مطالب بالموازنة بين الاثنين ، أى بالاعتدال فيهما ، لأنه ليس ملاكا يمكنه الاستغناء عن الجانب المادى ، وليس حيوانا يكتفى فقط بالاستمتاع بالأكل والملذات الشهوانية .

فاذا بحثنا فى القرآن الكريم عن الآيات التى تدعو الانسان الى مراعاة الجانبين ، نجدها كثيرة ، وسنكتفى بذكر بعضها ، يقول الله تعالى : **« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا »** (١) ..

ويقول : **« يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم »** (٢) ..

ويقول : **« يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم »** (٣) ..

بل انه استنكر مبدأ تحريم التمتع بما فى هذه الحياة من مظاهر وملذات ، فقال تعالى : **« قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة »** (٤) ..

وقال : **« يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم »**(٥).

فهذه الآيات دليل قاطع يرد على ما أشيع فى المجتمع الغربى من أن الاسلام ينظر الى المال على أنه رجس ، ويأمر أتباعه باجتنابه . فالمال فى نظر الاسلام ركن أساسى فى الحياة لا يمكن الاستغناء عنه ، وهو أحد الجوانب التى يقوم عليها استمتاع الانسان بحياته .

يقول الله تعالى : **« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب »** (٦) ..

---

(١) القصص : ٧٧ .
(٢) البقرة : ١٧٢ .
(٣) البقرة : ٢٦٧ .
(٤) الأعراف : ٣٢ .
(٥) المائدة : ٨٧ .
(٦) آل عمران : ١٤ .

بل اننا نجد أمر الله المسلم أن يستمتع بهذا المال فى قوله تعالى : **« يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين »**(٧) ..

فالأمر باستخدام الزينة،وبالأكل والشرب يظهر بوضوح أن الاسلام يدفع المسلم الى الاستمتاع بالماديات ، ولن تتاح فرصة الاستمتاع الا لمن يعمل ، ولهذا حث الاسلام فى كثير من آياته على السعى لكسب المال ، فقال تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون . فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون »** (٨) ..

فنلاحظ فى هذه الآية أنه يأمرهم بمغادرة المسجد عقب الصلاة مباشرة لكى يقوموا بأعمالهم التى تدر عليهم أموالا ، فمن يمكث فى المسجد ، ويؤدى عبادات غير مفروضة عليه تاركا عمله الدنيوى الذى يدر عليه ربحا ، فهو مخالف لتعاليم الاسلام ، ولا يكون مسلما كامل الايمان .

وما يعرف عن المسلمين اليوم من التكاسل فى العمل والتراخى فى أداء واجباتهم فى مجالات العمل الدنيوى ، فلا يمثل الاسلام بحال من الأحوال ، اذ لم يوجد دين من الأديان اشتمل على نصوص تحبذ العمل الدنيوى وتحث عليه مثل الاسلام ، فالقرآن الكريم ملىء بالآيات التى تدفع المسلم الى الاجتهاد فى العمل ، والانتاج ، والابتكار أذكر منها قوله تعالى : **« هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه »**(٩) ..

وقوله : **« وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ، ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها ، وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون »** (١٠) ..

---

(٧) الأعراف : ٣١ .
(٨) الجمعة : ٩ ، ١٠ .
(٩) الملك : ١٥ .
(١٠) فاطر : ١٢ .

فهذا توجيه للانسان الى استغلال البحر واستخراج ما فيه من كنوز ، لتضفى على الحياة البشرية نوعا من السعادة والابتهاج .

وهناك آيات كثيرة ، تدعو الانسان الى التفكير الذى هو أساس الابتكارات والاختراعات فى مجالات الحياة المختلفة ، منها قوله تعالى : « **كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون** » (١١) ..

« **قل هل يستوى الأعمى والبصير ، أفلا تتفكرون** » (١٢) ..

« **أو لم يتفكروا فى أنفسهم** » (١٣) ..

« **كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون** » (١٤) .

● فاذا كان الاسلام قد أباح استخدام المال ، بل وحث عليه ودفع الانسان الى جمعه واقتنائه ، ودعا الى استعمال قدراته الفكرية فيما حوله ليخضعه له ، ولينتفع به فى جمع المزيد من المال ، فهل اطلق حرية جمع المال وربحه دون قيود ؟

— لا يوجد مجال على وجه الأرض يمكن أن تطلق فيه الحرية دون حدود تحدها أو معالم تحصرها داخل اطار محدود لا تتجاوزها ، فجميع الأنشطة الانسانية مشتركة فى هذا التحديد والتقييد ، غير أنها تختلف فى الكم والكيف ، وفى الآثار التى تترتب على تحديد مسارها ، وطبقا لهذا المبدأ العام المعترف به من الجميع ، يوجد لنشاط المسلم فى مجال المال حدود ترسم له طريق الحصول عليه ، ومعالم تحدد له طريق انفاقه والتصرف فيه ، وقوانين تضبط علاقته كصاحب مال بمن حوله ، وما حوله .

أطلق الاسلام حرية الملكية الخاصة ، فللمسلم أن يمتلك ما شاء دون تحديد لكمية ما يملك ، غير أنه ألزمه بأن تكون الملكية قد آلت اليه عن طريق شرعى ، بمعنى أنه قد بذل جهدا ، وسلك الطرق القانونية فى سبيل الحصول على المال ، طرقا لا تتسبب فى ايذاء الناس ، ولا تلحق

---

(١١) البقرة : ٢١٩ .
(١٢) الأنعام : ٥٠ .
(١٣) الروم : ٨ .
(١٤) يونس : ٢٤ .

الضرر بالمجتمع • ومن هنا وضع ضوابط المعاملات التجارية التى منها : تحريم الاتجار فيما يضر الناس كالمخدرات على سبيل المثال لا الحصر ، فكل مال ربحه المرء عن هذا الطريق فهو حرام ، يحق للدولة أن تصادره وتعاقب صاحبه •

كذلك أوصى الاسلام بالبعد عن الغش فى المعاملات التجارية • فحرم العقود على شىء مجهول ، لما فيه من غبن متوقع ، وغش مستور ، ومنع احتكار السلع لرفع الأسعار • وليس معنى هذا أن الاسلام يسمح بتدخل الحكومة تدخلا مباشرا فى تحديد الأسعار ، لا ! فقد روى أن الناس شكوا الى رسول الله من غلاء السعر ، وقالوا له : سعر لنا فقال : « ان الله هو المسعر القابض الباسط الرازق ، وانى لأرجو أن ألقى الله وليس أحد منكم يطالبنى بمظلمة فى دم أو مال » ••

ومعنى هذا الحديث أن النبى ﷺ يعلن أن التدخل فى حرية الأفراد بدون ضرورة يعد ظلما من الحاكم ، فلا ينبغى لحاكم أن يتدخل فى السوق ما لم تكن هناك ضرورة تدفعه الى ذلك ، كأن يدفع بهذا التدخل ضررا عاما يلحق بالأمة ، أو استغلالا مفتعلا من التجار للمواطن ••وذلك يكون اذا ظهرت عوامل غير طبيعية فى السوق ، كأن يحتكر التجار سلعة ما ، ويتلاعبون بأسعارها • اذ تقدم هنا مصلحة المجموع على حرية بعض الأفراد ، فتدخل الدولة فى هذه الحالة واجب لدفع ضرر عام يصيب مجموع الأمة ، ويكون عملها هذا طبقا لما جاء فى الحديث : « لا ضرر ولا ضرار فى الاسلام » ••

فاذا التزم المسلم بهذه الحدود ، وهى عدم الاتجار فما يضر الأفراد أو المجتمع وعدم الغش فى المعاملات مع من يتعاملون ، وعدم التدخل فى حركة السوق لخلق ظروف غير طبيعية لرفع الأسعار بطريقة تلحق الضرر بالمجتمع ، اذا التزم المسلم بهذا كله فى تعاملاته المالية ، فما يكسبه حلال له ، لا يحق لأحد أن ينتزعه منه ، مهما كانت سلطته ، ولا يجوز لأى حكومة أن تحدد ملكيته ، غير أنه ملزم بأن يؤدى حقوق هذا المال •

وتنقسم هذه الحقوق الى جزئين :

الجزء الأول : كيفية الانفاق من هذا المال : اذ يلاحظ فى المجتمعات المعاصرة أن الرأى العام يرى أن صاحب المال حر فى ماله ، ينفق منه ما شاء ، وكيف شاء ، فله أن يستمتع به على أى وجه يراه ، وبأى أسلوب يرتضيه • قد يكون هذا مقبولا كمبدأ عام ، ولكننا اذا درسنا هذه الظاهرة دراسة أعمق لوجدنا أن اطلاقها يؤدى الى بعض سلبيات تضر بصاحب المال نفسه ، اذ لو أطلق العنان له فى الانفاق ، فقد يترتب على ذلك ضياع رأس ماله ، وقد يترتب عليه تدمير نفسه بسبب اغراقها فى الملذات والشهوات ، وقد يثير حقد من حوله عليه ، اذا رأوه يعيش فى بذخ سافر وترف خيالى ، بينما هم لا يجدون ما يسدون به رمقهم •

ولهذا أمر الاسلام بالاعتدال فى الانفاق فقال تعالى : **« وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، انه لايحب المسرفين »** (١٥) ••

وقال فى وصف المؤمنين الملتزمين بأنهم هم : **« والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما »** (١٦) ••

أى كما أن الاسراف مدمر ، كذلك التقتير أيضا ، لأنه لا ينبغى أن يكون للمرء مال ثم يعيش دون أن يتمتع به ، فالمطلوب هو الوسط ، لا تقتير يصل الى حد الحرمان من التمتع بما ربح من مال ، ولا الاسراف الذى يؤدى الى تدمير الشخص بماله الذى كسبه بجده وجهده وعرقه •

ولذلك يقول الله تعالى : **« ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك** (وهذا كناية عن الشح وعدم الانفاق) **ولا تبسطها كل البسط** (أى تطلقها بالانفاق اطلاقا عاما بحيث لا يبقى شىء مما ربحه) **فتقعد ملوما محسورا »** (١٧) ••

أما الجزء الثانى : من حقوق المال على صاحبه فيتعلق بمن حوله ، وهم ينقسمون الى قسمين : قسم يعمل معه وهم العاملون الذين يشتغلون

---

(١٥) الأعراف : ٣١ . (١٦) الفرقان : ٦٧ .
(١٧) الاسراء : ٢٩ .

معه فى تجارته أو مصنعه أو مؤسسته .. الخ فيجب على صاحب المـال أن يعطيهم أجرهم كاملا بحيث لا يكون هناك استغلال لهم أو احتكـار لجهودهم ، فحقهم عليه أن يأخذوا أجرا مساويا لمـا يقومون به من عمل، وأن تؤمن حياتهم صحيا واجتماعيا وثقافيا •

أما القسم الثانى فهم الفقراء المحتاجون ، فقد ألزم الله صاحب المال بأن يعطيهم جزءا من مالهم — وهو الزكاة التى فرضها الله عليه — كى يستعينوا به على مواجهة مطالب الحياة الضرورية •

قد يقال : ان هذا اعطاء بدون مقابل ، اذ لم يقدم الفقير شـيئا مقابل ما يأخذه من مال ، وبالتالى لم يستفد صاحبه فائدة مقابل ما يعطى، وهذا فهم غير سليم ، ذلك أننا حتى لو تجاوزنا الجانب الانسانى ، الذى لا يفهمه بعض أصحاب المال ، فان هناك مقابلا ماديا يعود عليه ويتمثل هذا فى أنه لا يمكنه كسب المال وجمعه الا فى مجتمع ، فالمجتمـع عامل من العوامل المسـاعدة — ان لم يكن العامل الرئيسى له — فى تكوين رأس المال واستمرار الربح الذى يعود عليه بدون انقطـاع ، ولا يمكن للمجتمع المحافظة على كيانه وتماسكه الا اذا كانت لبناته صحيحة ، فاذا اختل جزء منه — والاختلال هنا يتمثل فى انتشار الفقر والجهل والمرض بين أفراده — اصيبت باقى أجزائه بالشلل ، ومنها الجانب الاقتصادى •

وعليه فمن الفوائد التى تعود على أصحاب المـال بالكسب الوفـير أن يكون المجتمع قادرا على استيعاب ما ينتجونه ، وتطرد الزيادة بمقدار ما يتمتع به المجتمع من سلامة أفراده وتقدمهم ثقافيا واقتصاديا •

فقدرة النظام المالى الاسلامى على المحافظة على الموازنة بين أفراد الشعب ترفع عنه سلبيات النظام الشيوعى التى تتمثل أسـاسـا فى حرمان الانسان من الملكية التى هى غريزة طبيعية عنده ، وفى تمتع حفنة من الحكام بخيرات الأمة ، بينما يحرم منها السواد الأعظم من المواطنين•

كما يحمى المجتمع من ظواهر الاستغلال والتحكم الديكتاتورى الجشع فى النظام الرأسـمالى ، اذ هو — أى النظام الاسلامى — لا

يعطى الحاكم الحق فى أن يتمتع بما تنتجه الأمة على نحو يحرم الآخرين من حقوقهم فى هذا الانتاج ، كما يحرم جميع أنواع الاستغلال التى يمارسها أصحاب المال فى النظام الرأسمالى، بل انه يفرض عليهم اخراج جزء من أموالهم سنويا لمساعدة المحتاجين وتأمين المرافق التى تخدم هؤلاء المحرومين ، وبذلك يحافظ المجتمع على وحدته ، حيث يعيش أفراده متماسكين ، يعطف الغنى منهم على الفقير ، كما يحافظ الفقير على أموال الغنى ويرعاه ، لأنه يناله جزء منه .

وقبل هذا كله يرعى الحاكم حق كل مواطن فيما أسند اليه تدبيره ، فلا يستغل مركزه فى أخذ ما ليس له حق فيه ، ولا فى مساندة القوى الاقتصادية على حساب المحتاجين من أبناء المجتمع ، فان أساء صاحب المال فى التصرف ، فيجب على الحاكم أن يتخذ من الاجراءات ما يحول بينه وبين الاضرار بالمجتمع ؛ مع الاحتفاظ بحقه فى ملكية المال .

* * *

obeikandl.com

٥ ـ مكانة العمل فى الاسلام

تقوم الحياة على اختلاف أنواعها وأشكالها وتعدد صورها وهيئاتها على العمل ، فهو الأساس الأول والركيزة الهامة لاستمرارها ، سواء أكان ذلك على مستوى الشعوب والأمم ، أو فى مجال الأفراد والمجتمعات ، كما أنه عنصر هام فى بناء الحضارات ، وانشاء المرافق الهامة التى تعود على الانسان بالخير فى مجال حياته الخاصة ، وبالعزة والكرامة فى مجال الانتماء الوطنى ، لأن الأمة لا تستطيع الاحتفاظ بحريتها وكرامتها بين الأمم الا بمقدار ما يعمل أبناؤها فى تشييد دولتهم فى المجالات المادية والروحية والثقافية ، اذ كلما ارتفع بناؤها فى هذه المجالات اكتسبت قوة ومنعة ضد من يريد الاعتداء عليها ،أو يفكر فى اذلالها واخضاعها لمشيئته وارادته •

وعليه فان أى دين لا يقدس العمل ولا يحث أتباعه عليه ، فهو دين بعيد عن واقع الحياة الانسانية ، ويتنافر مع طبيعة واقع الوجود ، وغيرمنسجم مع قوانين الحياة التى ترتكز هيئة الكون كلها عليها •فالدعوةالى تجنب العمل مرض ، مهما كانت الأسباب التى تستند اليها والدوافع التى تبرزها الى الوجود فى المجتمع الانسانى ، ونظرة احتقار العمل نزعة مدمرة لحياة الفرد والجماعة ، فالخروج من ميدان العمل بدعوى الرهبنة ظاهرة تضفى على الانسان ثوب الاغتراب الاجتماعى ، وتفصله عن واقعه الانسانى ، وتقضى على قدرته الخلاقة ، ونشاطه المثمر لنفسه ولأسرته ولوطنه ، بل لجنسه البشرى كله ، ولهذا لم يأمر الاسلام بشىء يبعد الانسان عن مجال العمل •

فقال تعالى ، مؤنبا من اتخذ الرهبنة طريقا له فى حياته :
« ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم »(١) ••

ولما أخبر الرسول ﷺ عن رجل يقوم الليل ويصوم النهار ، سأل عمن يكفله فى معيشته،فقالوا له : أخوه ، فقال رسول الله ﷺ : « أخوه

---

(١) الحديد : ٢٧

خير منه » •• أى أن من يعمل ليكسب قوته خير ممن يعبد الله آناء الليل وأطراف النهار ، ويعيش عالة على غيره ، وتلك هى روح الاسلام فى نظرته الى العمل ، اذ حث عليه فى أكثر من مائتى آية فى القرآن الكريم ، وجاء تعبيره فيها عن العمل غير مقيد بما يفيد قصره على العبادة أو العمل الدنيوى ، بل أطلقه ليشمل كل ما من شأنه أن يؤدى الى الخير للفرد والناس جميعا •

فثمرة العمل — أيا كان نوعه — تعود على الجميع بالخير بطريق مباشر أو غير مباشر •

يقول الله تعالى : **«من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها»**(٢) •• أى من عمل صالحا فى مجال العبادة ، أو فى المجال الدنيوى ، سيعود نفعه عليه ، لأن العمل الصالح فى مجال العبادة يهذب النفس ، ويطهر القلب ، فيعود أثر ذلك على أسلوب الناس فى حياتهم ، ولكنه لا يغنى عن العمل الدنيوى ، أى السعى لكسب القوت وتحقيق مطالب الحياة الدنيوية، فالعمل فى هذا المجال يساعد على بناء حياة كريمة لمن يسعى ، وبالتالى لأسرته ولمجتمعه ، بل للانسانية كلها ، لأنه يسهم فى بناء الحضارة الانسانية التى يعم نفعها جميع بنى البشر فى أى مكان على وجه الأرض•

ولذا وعد الله من يعمل صالحا فى كلا المجالين : الدينى والدنيوى بالأجر والثواب فى الآخرة ، يقول الله تعالى : **« ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات انا لا نضيع أجر من أحسن عملا »**(٣) ••

فأطلق العمل هنا ليشمل كل عمل ، سواء أكان عبادة لله ، أم سعيا لطلب الرزق ونشاطا فى مجال التقدم البشرى ، بل انه رأى — أى الاسلام — وضع الناس فى درجات متفاوتة حسب أعمالهم فى الدنيا •

يقول الله تعالى : **« ولكل درجات مما عملوا »** (٤) ••

فنظر الاسلام الى العمل وتقديسه والحث عليه أوجب على

---

(٢) فصلت : ٤٦ ، الجاثية : ١٥ (٣) الكهف : ٣٠
(٤) الأنعام : ١٣٢ ، الأحقاف : ١٩

الدولة توفير أسباب القيام بالأعمال التى لا تقوم لحياة الا بها ، ولا يتسع العمران بدونها ، ولا يتقدم المسلمون ويرتقون بسواها ، فجعل ذلك فرض عين على القائمين على الدولة ، ووضع تلك القاعدة الواضحة لقيم الأفراد فى المجتمع ، وهى أن : « قيمة كل امرىء ما يحسنه » ..

فصار هذا الاتجاه دعوة الى كل فرد بألا يكون سلبيا أو عالة أو عقيما لا ينتج ، أو معتمدا على حسب أو مال موروث بدون جهده أو انتاج ذاتى نافع صادر من امكاناته وقدراته الشخصية .

وكان مصدر هذا الاتجاه فى الاسلام آيات عديدة من القرآن الكريم ، تحث على العمل ، وتنفر من الكسل وعدم الاسهام فى الانتاج الذى يقوم عليه البناء الحضارى للمجتمع البشرى ، ولعل أوضح آية فى هذا المجال قوله تعالى : **« وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شىء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير ، هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم »**(٥) ..

ففى هذه الآية يبين الله سبحانه وتعالى قيمة العمل وأثره على وضع المرء فى المجتمع ، اذ وضح فى المثل أن قيمة الفرد فى عمله ، وأن من لا يحسن عملا لا يساوى شيئا ، وأنه لا يمكن أن يسوى بينه وبين الفرد الايجابى فى المجتمع ، ذلك الفرد الذى يعمل فننتج لينتفع هو وبنو وطنه من نتائج مجهوده فى ميدان العمل ، وهذه قضية تنسجم مع واقع الحياة ، وتتفق مع العقل ، اذ لا يمكن لعاقل أن يسوى بين الشخصية السلبية العاجزة عن فعل الخير أو قوله ، العقيم العالة على المجتمع ، التى لا يجدى معها التوجيه الى سبيل الخير ، وبين الشخصية الايجابية التى يفيض منها عمل الخير ، وتوجه غيرها اليه ، وتمضى عمليا على الطريق المستقيم الى وجهات النفع والانتاج فى الحياة .

فاذا كان القرآن الكريم يدعو المسلمين الى العمل ويحثهم على بذل كل ما فى استطاعتهم فى مجال الانتاج ، ليصبحوا فى عزة ومنعة من

---

(٥) النحل : ٧٦

أعدائهم ، ويبين لهم أن من لا عمل له لا قيمة له ، فما بالهم اليوم يعيشون فى وسط هذا العالم الصناعى المعقد عيشة بدائية ، ويستنكفون من العمل فى مجالات الحياة المختلفة ، بل ان رجال الدين منهم ينفرون من العمل المادى الذى به قوام الحياة ، اذ قل أن تجد فيهم من يحسن عملا ماديا لخدمة البيت أو البيئة ، بل حصروا أنفسهم فى دائرة ضيقة ، وضربوا حولهم سياجا يفصلهم عن كل ما يتصل بالاسهام فى مجالات الصناعة وغيرها مما يعود على المجتمع بالخير المادى الذى يؤدى الى الاستقرار الاقتصادى فى الدولة ؟

لم يقف المسلمون من مزاولة الأعمال المادية موقفا سلبيا الا فى عصور الانحطاط الفكرى وتسلط من لا يفهم روح القرآن الكريم على مقدراتهم ، الأمر الذى جعل فجوة سحيقة بين المجتمعات الاسلامية ، وبين ما فى كتاب الله من سير الأنبياء والصالحين الذين كانوا يمارسون الأعمال المادية بجانب مهمتهم الروحية فى تبليغ رسالة الله ، بل انهم كانوا روادا فى مجالات الأعمال الدنيوية المختلفة . وقد قص القرآن الكريم كثيرا من هذا الجانب ، فبين أن نوحا كان رائدا فى صناعة السفن ، حينما صنع سفينته بوحى من الله ليحمل فيها من آمن معه من قومه ومن كل حيوان زوجين اثنين ، لينجو من الطوفان .

وان ابراهيم وابنه إسماعيل كانا بناءين ماهرين ، فهما اللذان رفعا قواعد البيت الحرام ، يقول الله تعالى : « **وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل** »(٦) ..

وكذلك كان النبى يوسف رائدا من رواد التدبير المالى والاقتصادى فى مصر ، فحماها وما حولها من البلاد من المجاعة ، اذ يحكى القرآن الكريم عن وجهة نظره الاقتصادية فى المحافظة على الانتاج ، حتى لا تتعرض البلاد لمجاعة مهلكة فيقول : « **قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله الا قليلا مما تأكلون** »(٧) ..

---

(٦) البقرة : ١٢٧   (٧) يوسف : ٤٧

وكان موسى من الممارسين للأعمال التى تحتاج الى قوة العضلات وشدة البأس مما مكنه من أن يدافع عن بنى قومه ، وأن يساعد ابنتى النبى شعيب على سقى قطيعهما ، فكان ذلك من الأسباب التى رشحته للزواج من احداهما عند أبيها . يقول الله تعالى : **« قالت احداهما يا أبت استأجره ، ان خير من استأجرت القوى الأمين »** (٨) . .

وكان النبى داوود وابنه سليمان رائدين فى الصناعة ، يصنع أولهما الدروع السابغات ويأكل من عمل يده ، فيحكى القرآن الكريم عن ذلك فيقول : **« وألنا له الحديد . أن اعمل سابغات وقدر فى السرد »** (٩)

ويشرف ثانيهما : على الصناعات المتعددة فى الدولة ، ويجند كل طاقات الدولة فى سبيل الانتاج الصناعى ، يحكى القرآن الكريم عنه فيقول: **« ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر ، وأسلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ، اعملوا آل داوود شكرا »** (١٠) . .

وكان ذو القرنين رائدا فى اقامة السدود بجانب ريادته لحياة العدل والاصلاح يحكى القرآن الكريم عنه فيقول : **« قال ما مكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما . آتونى زبر الحديد ، حتى اذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا ، حتى اذا جعله نارا قال آتونى أفرغ عليه قطرا »** (١١) . .

بل ان خاتم الأنبياء محمدا ﷺ كان لا يستنكف من العمل ، اذ يروى أنه «كان فى مهنة أهله» أى خدمتهم ، وكان يخصف نعله ، ويذبح ذبيحته ، ويرقع ثوبه ، كما كان تاجرا أمينا ، محاربا شجاعا ، وقائدا مظفرا ، ومربيا حليما ، وبالاختصار فقد كان رجل دين ودولة ، وكان أصحابه أيضا تجارا ورعاة ومحاربين وممارسين لكل أنواع الحياة . فلم يقفوا من الأعمال

---

(٨) القصص : ٢٦
(٩) سبأ : ١٠ ، ١١
(١٠) سبأ : ١٢ ، ١٣
(١١) الكهف : ٩٥ ، ٩٦

الدنيوية موقفا سلبيا ، ولم يكونوا متواكلين ولا عجزة ، بل كانوا عمالا مهرة فى جميع مجالات الحياة ، بجانب التزامهم بتأدية واجباتهم الدينية.

وسار على دربهم المسلمون الأوائل ، فبنوا حضارة اسلامية ، شع نورها على جميع أقطار الأرض ، لكن الظروف التى منيت بها الأمة الاسلامية فيما بعد أبعدتها عن هذه الروح الخلاقة .

فاذا ذكر اليوم تخلف المسلمين فى المجال المادى ، فينبغى ألا يفهم أن مرده هو تعاليم الاسلام ، فقد ظهر واضحا أن الاسلام يدعو الى العمل ويحث عليه ، بل يجب أن يبحث العلماء عن الأسباب الأخرى التى أدت بالمسلمين الى هذا الوضع ، ولا شك أن منها بعد المسلمين عن روح التعاليم الاسلامية ، ويوم يعودوا الى فهم تعاليم دينهم فلسوف يدركون أن العمل عبادة ، وأن السعى الى الرزق مقدم على الاستغراق فى التأمل والتفكر فى ملكوت الله ، وصدق الله اذ يقول فى كتابه المنزل على رسوله : « **فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله** »(١٢) ..

وقد مكن الله للانسان فى الأرض ، وأوسع له ما فيها ، وأعطاه من الدنيا على قدر اجتهاده ونشاطه فى ميادين الحياة ، فمنحه كنوز الأرض المخبوءة ، يأخذ منها ما يستطيع ويمتلك منها ما يكسبه عن طريق عمله ، وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول : « ان الله يعطى العبد على قدر همته ونهمته » ..

فلم ينظر الاسلام الى الدنيا على أنها سجن ، أو دار عذاب وألم ، كما هو موجود فى بعض الأديان الأخرى ، وانما أخبرنا بأنها دار مؤقتة للاختبار ، ولا يكون الاختبار كاملا اذا منح العبد مباهجها ونعمها ، وطلب منه أن يرعى الله فى هذه النعم ، فلا يقتنصها من حرام ، ولا يمارسها بأسلوب يغضب الله ، فالحياة فى نظر الاسلام ممزوجة فيها المباهج بالآلام ، وهى آلام العمل والسعى الى الرزق ، والنشاط الدائم

---

(١٢) الجمعة : ١٠ .

للحصـــول على مباهج الحيــاة ونعمها ، فهى ليست آلاما خالصة ، كما أنها ينبغى ألا تكون اغراقا فى الملذات دون الشـــعور بالمســئولية فى تحصيلها ، أو دون أن يكون التمتع بحســاب حتى لا تدمر الملــذات الفرد والمجتمع •

فحين حث الاسلام على العمل فى المجالات المــادية ، انما قيده بأن يلتزم العامل بالمبادىء الأخلاقية فى عمله ، وحين أباح له التمتع بما كسبه من عمله ، فقد حدده بما يعود على الفرد والأمة بالخير ، بحيث لا تدمر الملذات نفس الانســان ، وبحيث لا يطغى الاستغراق فى المادة على ما عداها فينحل المجتمع وينهار ، وتلك هى الآفة المدمرة للمجتمعات الانســانية وصدق الله اذ يقول : « **قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحيــاة الدنيــا خالصة يوم القيامة** »(١٣) ••

فالعمل واجب ، والاستمتاع بما فى الدنيا مباح فى الحدود التى لا تؤثر على كيان الفرد والأمة •

فاذا وقف المسلمون موقفا سلبيا من الأنشطة المــادية فى المجتمع ، فلا يعتبر هــذا دليلا على أن الاسلام حرم العمل فى هــذا المجال ، بل مؤشرا على عدم فهمهم لروح تعاليم الاسلام •

* * *

---

(١٣) الأعراف : ٣٢

٦ — مفهوم الحرية الشخصية فى الاسلام

ينبعث من كلمة الحرية رنين له صوت الموسيقى فى آذان الجماهير المستعبدة ، وأصداء تتراقص أمام أعين البؤساء الذين غابت الحرية عن أوطانهم ، فطحنوا تحت عجلات الديكتاتورية والاستعباد ، وامتصت ريح الجبابرة والطغاة دماءهم ، فعاشوا فى ظلام حالك ، يتحسسون طريقهم الى النور فلا يجدون مخرجا ، وينساقون وراء كل من يناديهم بنغمات الحرية ولو كان كاذبا ، ويثقون فيمن ينشد أنشودة الخلاص من الاستعباد قبل أن يتبينوا صدق دعواه واخلاصه ، ومدى تضحيته فيما ادعاه •

ويجرى الناس وراء المنادين بالحرية ، دون أن يعرفوا حدودها وأبعادها ويدركوا مجالاتها وسماتها ، فنراهم يظنون أنهم سيحصلون على كل شىء عندما ينتصرون على جلاديهم ، ويصبحون سادة فى تسيير أمورهم وشئونهم ، غير مدركين أن الحرية المطلقة لم — ولن — توجد فى عالم الانسان ، لأنه لا يمكن تطبيقها فى المجتمع الانسانى المتشابك المصالح والمنافع والمتداخل فى جميع شئونه المختلفة وفى ظروفه المتعددة ، فلو فرضنا جدلا أن انسانا ما استطاع أن يحصل على ما يمكنه من التصرف بحرية مطلقة ، لا حدود لها ، فان ذلك سوف يؤثر على حياة من يعيش معه فى أسرته ، أو مجتمعه ، وربما يبلغ هذا التأثير حد الاضرار المادى بالآخرين ، أو سلبهم حريتهم بحيث يعيشون مسلوبى الارادة ، فيفقدون كرامتهم ، وربما حياتهم أيضا •

ولذا يجب على الانسان أن يدرك أن هناك قيودا تقيد الحرية ، وتختلف هذه القيود من مجتمع لآخر ، كما تخضع لظروف العصر والتقاليد الاجتماعية ، وقبل هذا كله فان الأحكام والمعتقدات الدينية تحددها وترسم معالمها • فحرية الفرد كما رسمها الاسلام تنحصر فى أربعة مبادىء أساسية : أولاها : حقه فى اختيار العقيدة التى يدين بها ، بشرط ألا يكون لها آثار مدمرة لمن يعيشون معه ، أو جوانب تهدد سلامة

المجتمع وأمنه ، اذ لا يجبر أحد على اعتناق شىء بالاكراه حتى ولو كان هـذا الشىء الاعتراف بالاسلام دينا ، يقول الله تعالى : « **لا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى** »(١) ..

ويقول مخاطبا نبيه عليه الصلاة والسلام : « **أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين** »(٢) ..

فهو هنا يستنكر اكراه الناس على الدخول فى الاسلام • ولكن ليس معنى اعطاء الحرية للانسان فى اعتناق ما يشاء من عقائد أن حريته مطلقة فى هـذا المجال ، لا ! بل هى مقيدة — طبقا للمبادىء العامة ، والمسلمات الأولية التى تؤكد أنه لا توجد حرية مطلقة فى أى مكان على وجه الأرض — بما يحفظ على المجتمع أمنه وسلامته ، وبما يدفع عن الفرد والأسرة الأخطار التى تهدد أسس الحياة الانسانية ، فللفرد أن يعتنق ما يشاء ، بشرط ألا يكون هناك ضرر بين له ولغيره ، ممن يعيشون معه ، ولا ينتج عن اعتقاده ما يسىء الى شعور المسلمين أو يهدد كيان عقيدتهم •

والمبدأ الثانى من المبادىء التى أرساها الاسلام فى مجال الحرية الشخصية : هو حرية الرأى ، فهى من القواعد العامة فى التشريعات الاسلامية ، اذ يرى المرء كثيرا من الأحكام الفقهية التى تؤمن للفرد الطريق السليم للتعبير عن رأيه ، وتهيىء له الظروف الصحية للاعراب عما فى نفسه فى جميع مجالات الحياة ، فعقد المكره باطل ، ولا يحاسب المجبر على ما يقترفه من سيئات ، حتى ولو كان الكفر بالله ، يقول الله تعالى : « **انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله ، وأولئك هم الكاذبون • من كفر بالله من بعد ايمانه الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان** »(٣) ..

بل انه سفه أحلام قوم سكتوا فلم يعبروا عن آرائهم ازاء ما يدور

---

(١) البقرة : ٢٥٦ (٢) يونس : ٩٩
(٣) النحل : ١٠٥ ، ١٠٦

حولهم من أحداث : يقول رسول الله ﷺ : « الدين النصيحة .. قلنا : لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولرسوله وأئمة المسلمين » .. فالنصيحة هى تعبير عن رأى الناصح ازاء ما يشاهده من أعمال وسلوك ، فان لم يقم بها فقد أثم اثما مبينا ، لما روى عنه ﷺ أنه قال : « اذا هابت أمتى أن تقول للظالم : يا ظالم . فبطن الأرض خير لهم من ظهرها » .. ، كما اشتهر بين المسلمين : أن الساكت عن الحق شيطان أخرس .

غير أن الذى يتجاوز الحدود المشروعة فى التعبير عن رأيه آثم أيضا اثما كبيرا ، اذ لا ينبغى أن يكتشف الأسرار العائلية ، ولا أن يفشى ما اؤتمن عليه من متعلقات شخصية أو يشيع افتراءات لا أصل لها ، سعيا وراء تدعيم رأيه فى مجال الصراع الفكرى ، أو الاجتماعى أو السياسى ، فالتعبير عن الرأى مباح فى حدود الموضوعية وداخل اطار المصلحة العامة ويجب أن يكون على قدر ما يعبر به عن الظلم الواقع على الفرد أو الجماعة ، أو ما يوضح حقا يجب أن يصان ، سواء أكان ذلك متعلقا بفرد واحد ، أو يمس طائفة من طوائف المجتمع ، أو كان متعلقا بالمجتمع كله ، فلا يسىء الى أحد خارج اطار الموضوع ، أى لا يتناول سيرته الشخصية ، أو يجرح شعور أسرته ما دام ذلك بعيدا عن مجال النزاع ، كذلك حرم الاسلام استعمال العنف فى فرض الرأى ، فلا يجوز ايذاء المخالفين للرأى بدنيا أو نفسيا ، فلا يتهكم عليهم تهكما بذيئا ، ولا يسبهم بما يجرح شعورهم أو ينقص من كرامتهم ، ومن باب أولى لا يستعمل معهم أى وسيلة تؤذيهم فى بدنهم ، سواء أكان ذلك ضربا أو قتلا .

كذلك أباح الاسلام للمرء أن يختار العمل الذى يرتضيه — بخلاف الأديان الأخرى كالبراهمانية التى حددت لكل طائفة من طوائف المجتمع عملا لا يتجاوزه الى غيره — ما دام ملتزما بعدم ايذاء الآخرين ، فان ترتب على عمله ضرر بالمجتمع أو بأشخاص بعينهم ، فان الاسلام يحرمه ، فالتجارة فيما يضر الصحة العامة حرام ، والتعامل التجارى مع من يشهرون السلاح فى وجوه المسلمين اثم ، وكل عمل يجر وراءه ضررا فهو داخل فى الدائرة التى حرمها الاسلام ، وما عدا ذلك فللانسان مطلق

الحرية فى ممارسة المهنة التى يقدر عليها ويرتضيها لنفســه ، ولكنه عندما يشرع فى مباشرة عمله ، فان حريته تتقيد بالقيود التى ارتضاها المجتمع ــ طبقا للأحكام الاسلامية ــ لهذه المهنة ، فلا ينبغى أن يخرج على مبدأ أقره المجتمع ، كما لا يجوز له أن يهمل فى عمله الذى أسند اليه بنـــاء على رغبته •

فالانسان حر حرية مطلقة ابتداء فى اختيار العمل الذى يناسبه ، ولكنه بعد أن يباشر العمــل ، يصبح ملتزما بقيود هــذه المهنة التى اختارها ، فلا تصبح حريته مطلقة بل مقيدة بالنظم واللوائح والقوانين التى وضعت لتحديد معالم العمل فى هــذه الوظيفة •

والمبدأ الرابع الذى أرساه الاســلام فى مجال الحرية : هو حرية الانسان فى مسكنه •• اذ هو المكان الخاص الذى يمارس فيه حريته كما يشاء ، ولذلك أوصى الاســلام بعدم انتهاك حرمة المساكن ، ووضع قيودا تمنع الآخرين من مضايقة الانســان فى مسكنه ، ولهذا أمر بعدم الدخول دون اذن لمن يقيمون معه من الخدم ، وصغار السن فقال تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات ، من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشــاء ، ثلاث عورات لكم »** (٤) ••

فاذا كان هــذا بالنسبة لمن يعيشون معه من الخدم وصغار السن ، فمن باب أولى ينبغى على غيرهم أن يمتنعوا عن مضايقة النـــاس فى مساكنهم فى هــذه الأوقات ، بل وفى غيرها دون اذن ســابق ، لأن ذلك ينغص على الساكنين لحظات قد يكونون فى احتياج الى الانتاج فيها ، فيقلب برامج حياتهم رأسا على عقب •

ولذا يجب على المسلم أن يحترم حرمة المساكن ، فلا يزعج الساكنين بزيارة غير متوقعة ، وفى أوقات غير مناسبة •

يقول الله تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم**

---

(٤) النور : ٥٨

حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون • فان لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا ، هو أزكى لكم ، والله بما تعملون عليم »(٥) ••

فطريقة الاستئذان تختلف من عصر لعصر ، ومن مجتمع لآخر ، ولذا يجب على من يريد الزيارة أن يتبع الطريق المعهودة فى المجتمع فى مثل هـذه الظروف •

كما لا ينبغى له أن يضايق جيرانه بالأصوات الصاخبة ، لأن من حق كل انسان أن يستريح فى بيته ، فلا ينبغى لأحد أن يقلق راحته بأى نوع من أنواع المزعجات ، وليس من حق أحد أن يدعى حريته فى ممارسة ما يشاء ، ولو كان فيما يزعج الآخرين ، لأن الحرية المطلقة لا توجد فى أى مكان على وجه الأرض ، ولذا ينبغى أن يراعى كل حقوق اخوانه وبنى وطنه فى سلوكه ، وفى تعامله معهم ، بحيث يصبح واقع المجتمع الاسلامى صورة مطابقة لحديث رسول الله ﷺ : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » ••

* * *

---

(٥) النور : ٢٧ ، ٢٨

٧ — منهج الاسلام فى تقييم الأنباء

يميل الانســان بطبعه الى الجرى وراء ما يكشــف له غموض المستقبل ، لأن غريزة الخوف عنده تستحوذ على مشاعره ، فتدفعه الى الجرى وراء كل صوت يعطى له الأمل فى معرفة ما يحدث فى الغد ، وتسلب ارادته أمام الذين يدعون أنهم قادرون على كشف غموض المجهول، فيسير وراءهم دون اعتراض على مسلك يسلكونه حتى ولو كان مضــادا للعقل ، أو متناقضا مع نصوص الأدلة الشرعية التى يؤمن بصــحتها ويعتقد فى سلامتها من التناقض أو التنافر مع متطلبات الحياة •

وقد أورثته هــذه الغريزة حب الاستطلاع ، فاندفع فى ســبيل اشباعها فى كل طريق يوصله الى المعرفة ، أيا كانت هذه المعرفة ، فهو دؤوب فى الكشف عن أسرار الطبيعة ، ومجد فى معرفة ما يدور حوله من أحداث ، وحريص على الوصول الى كنه الوجود وعلته وحقيقته ، مهما كلفه ذلك من جهد ومال ، فهو يركب الصعاب فى ســبيل الحصول على معلومة توضح له جانبا من جوانب الغموض فى حياته ، ويتحمل المشاق جريا وراء حل لغز من ألغاز الأحداث التى تدور حوله ، ويستصغر المخاطر اذا بدت له بارقة أمل فى ازاحة الستار عن شىء يجهله •

ولم يقتصر الانســان فى اشباع هــذه الغريزة على تتبع مصادر المعرفة التى تتعلق بالوجود وبأسرار الطبيعة فقط ، بل جاوزها الى السعى الى كل مصدر يعطيه نبأ لم يعرفه ، ويمده بخبر يسلط أضواء على جانب مجهول لديه ، أياً كان نوعه ســواء أكان متعلقا بأحداث الدول والشعوب ، أو بأحوال الأمم والمجتمعات ، أو كان متصلا بأسرار الأسر وخصوصياتها ، أو بحياة الأفراد وعلاقاتهم الشخصية ، فهو يميل الى التجسس لمعرفة ما يدور خلف الأبواب ، وينصت بسرور الى من يمده بأخبار الناس ، خاصــة اذا كانت هــذه الأخبار تتعلق بشخصيات عامة فى مجتمعه ، أو لهــا علاقة به ، وفى نشوة سروره بســماع هــذه الخصوصــيات يصدق كل ما يقال له دون تمحيص أو تدقيق ، بل قد

تدفعه دوافع خفية فى نفسه الى ترديد ما سمعه مؤكدا على ما يدفع السامع الى تصديقها ، وان اقتضى الأمر الاعتراف بأنه شاهدها بنفسه فانه لا يتردد فى ذلك .

تنكب الانســان الطريق فى ســبيل اشباع هــذه الغريزة ، فسلك طرقا غير مستقيمة قادته الى مسالك الضياع والهلاك ، وقذفت به الى واد سحيق ، لا يهتدى فيه الا الى التخبط فى الظلمات ، والتردد بين أمواج الشك والتشكيك ، والوقوع فى مآزق لا يستطيع التخلص منها الا بعد أن يفقد المــال والجاه ، ويضحى بالنفس والنفيس ، ويتجرد من السمعة الطيبة والصفات الحميدة ، فيقف عاريا من كل ما يستره من ثبات فى القلب ، وأمان فى مصدر المعرفة ، وفضيلة وكرامة بين أهله وبنى وطنه .

ففى جانب الجرى وراء معرفة المجهول ، لم يجد ما يبتغيه ، ولم يحصل على ما يزيل عنه الخوف من المستقبل ، بل وقع فى حبائل المنجمين الذين لا يعرفون شــيئا مما يقولون ، انما هى ألفاظ غامضة ، وعبارات لا تؤدى معنى ، وأحكام لا تتفق مع مقتضيات العقل ومتطلبات الحياة ، امتلأت بالأوهام ، وخلت من الحقائق ، فغلفت بالأمانى الكاذبة والآمال الخادعة ، فمن يصدقها هوى الى ظلمات بعضها فوق بعض ، فقذفت به أمواج الضياع والهلاك .

وفى مجال البحث عن أسرار الطبيعة وكنه الوجود ، تجاوز حدود القدرة الانســانية فصدق ما يقال له عما وراء الطبيعة ، ناسيا أن من يخبره عن ذلك عاجز عن الوصــول الى المجال الذى يتحدث عنه ، فليس ما يقوله سوى استنتاجات لا أصل لها ، وأقيسة لم يتوصل الانســان بعد الى التأكد من صدقها .

أما فى المجال الثالث ـــ وهو المتعلق بسعى الانســان وراء معرفة الأنباء التى تتعلق بالحياة الانسانية وتصديقها دون تمحيص أو تدقيق ، فقد ارتكب الانســان فيه حماقات أثرت على سلوكه فى المجتمع ،

obeikandi.com

اذ مال الى تصديق كل ما يقال له ، فوقع بذلك فى مشـــاكل اجتماعية وأخلاقية لا حصر لها ، وتسبب سلوكه هــدا فى تدمير سمعة أشخاص ظلما وعدوانا ، وفى اشعال معارك بين الأفراد والأمم أتت على الأخضر واليابس ، وسقطت فيها ضحايا بريئة ، فتحطمت بسببها نظم دوليــة ثابتة ، وأسر ذات قدم راسخ فى ساحات الفضيلة والشرف والكرامة •

وقف الاسلام من هــذه الظاهرة بشعبها الثلاث موقف المعالج للانسان ، فلم يأمره بانتزاع هــذه الغريزة ، لأن ذلك محال ، ولم يفرض عليــه من الوسائل ما يكبتها كليــة ، لأن ذلك ضد الطبيعة البشرية ، بل هذبها ووجهها الى طريق يعود على الانســان بالخير وعلى المجتمع البشرى بالنفع العام • فبين له أن هؤلاء الذين يوهمونه بأنهم يعرفون أنباء المستقبل غير صادقين ولا يستطيعون دفع الشر عن أنفسهم ، اذ لو كانوا صادقين ما وقعوا فى المآزق التى تصادفهم فى حياتهم ، وصدق الله اذ يقول موجها الخطاب لنبيه ﷺ : ((**قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شــاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ، ان أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون**))(١) ••

فاذا كان النبى ﷺ لا يعلم ما يدفع عنه السوء المخبوء له فى صفحات المستقبل المجهول فكيف بهؤلاء الذين لا يملكون من المؤهلات ما يمكنهم من معرفة الغيب ؟! وصدق رســول الله ﷺ حيث يقــول : « كذب المنجمون ولو صدقوا » •• أى ولو جاءت الأحداث مصــادفة طبقا لمــا قالوا • وذلك لأن الله لم يطلع أحدا على الغيب الا من ارتضى من رسول ، وفى حدود ما يريد الله اعلامه به ليبلغه لقومه ، يقول الله تعــالى : ((**عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا • الا من ارتضى من رســول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا • ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم**))(٢) ••

أما ما يدعيه بعض العلماء من تصور ما يدور فيما وراء الطبيعة ،

---

(١) الأعراف : ١٨٨ (٢) الجن : ٢٦ — ٢٨

فذلك محال .. لأن قدرة الانسان عاجزة عن الوصول الى كنه ما يدور حولها ؛ فكيف يستطيع معرفة ما يحدث فى مجال لا يستطيع تصـــوره فضلا عن الوصـــول اليه ، فهو من الأشـــياء التى استأثر اللهُ بعلمها يقول تعـــالى : ((**ولله غيب السـموات والأرض**))[٣] ..

ويقول : ((**وما كان الله ليطلعكم على الغيب**))[٤] ..

فمن يدعى معرفة ما وراء الطبيعة فهو كاذب لا يجوز لمسلم أن يصدقه فيما يقول حتى لا يقع فى ضلالات تتنازعه ذات اليمين وذات الشمال ، فتعكر عليه صفو حياته .

وفى مجال تلقى الأنباء ـــ سواء أكانت تتعلق بالأمم والشعوب ، أو كانت تمس الأشخاص والأفراد ـــ فقد أوصى الله المؤمنين بعـــدم تصديق الخبر قبل التأكد من صحته ؛ فقال تعالى : ((**يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاســق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين**))[٥] ..

أى اذا سمعتم خبرا فلا تسارعوا بتصديقه قبل أن تتثبتوا من صحته ، وذلك لا يكون الا بفحص جميع الجوانب التى تؤدى الى التأكد من صدق المصدر الذى خرج منه الخبر أو التثبت بصورة أو بأخرى بأن ما يحتويه الخبر من معلومات مطابق للواقع ، بحيث لا يشوبه شائبة تلقى ظلالا قاتمة على حقيقته ، لأن تصديق كل ما يقال دون تمحيص يوقع فى مآزق لا مخرج منها الا بآثار بعيدة المدى على من له صلة ـــ أيا كان نوع هذه الصلة ـــ بالأخبار الكاذبة .

بل ان الاسلام أغلق كثيرا من المنافذ التى قد تنفذ منها أخبار تسىء الى المسلم أو تؤدى الى تقطيع أواصر الرحمة بين الناس ، وتمزيق حبال الصداقة بينهم ، وطمس معالم التعاطف والتآلف والتعاون بين المسلمين ، فأمرهم باجتناب الظن الذى يصور لهم صورا غير حميدة عن اخوانهم ، كما حرم التجسس ، لأنه ـــ بالاضافة الى أنه وسيلة لكشف

---

(٣) النحل : ٧٧ (٤) آل عمران : ١٧٩
(٥) الحجرات : ٦

سوءات الناس — فهو باب لاختلاق الأقاويل ، التى لا أساس لها من الصحة ، وطريق تهمد لتصديق ما لا يمكن تصديقه ، وقد صور الله سبحانه وتعالى من يسلك هذين المسلكين — وهما الظن والتجسس — بأبشع صورة ، حيث وصفه بأنه مثل من يأكل لحم أخيه ميتا فقال تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا ، فكرهتموه ، واتقوا الله ، ان الله تواب رحيم »**[٦] ..

وجملة القول ان حب المعرفة غريزة فى الانسان ، وهى — ككل الغرائز الانسانية — تدفع صاحبها الى اشباعها ، وفى سبيل ذلك سلك الانسان مسالك ثلاثة ، فحاول كشف المستقبل ، وبحث عن كنه الوجود وحقيقة الحياة ، كما حرص على سماع الأخبار العامة والشخصية ، غير أن خوفه من المجهول وميوله الى البحث عن مصادر معرفة الأسرار ، يحمله دائما على تصديق كل ما يقال له دون تمحيص ، مما يوقعه فى أخطاء تؤثر تأثيرا سيئا على عقيدته وسلوكه ومركزه الاجتماعى ، الا أن من يعى أوامر الاسلام ، ويلتزم بها فى مجال المعرفة ، فلا يصدق من يدعى معرفة المستقبل ، ولا يسلم بما يقال عن ادراك أسرار ما وراء الطبيعة ، ولا يسرع فى تصديق ما يلقى اليه من أنباء دون تمحيصها ، والتدقيق فى مصادرها ، فانه يكون بهذا قد سار على الطريق المستقيم ، حيث لا تهتز عقيدته ، ولا تلوث سمعته بين الناس ، فيعيش فى اطمئنان يحب الجميع ، كما يسعى هو فى الخير لكل الناس .

* * *

---

(٦) الحجرات : ١٢

٨ — حرية الرأى بين الشجاعة والتهور

تختلف القدرات الفكرية من شخص لآخر ، بل تتميز طريقة التفكير بين المجتمعات الانسانية تبعا لظروفها الثقافية ومعتقداتها الدينية ، فبينما نرى مجتمعا يفسر الظراهر الكونية ، ويحلل الأحداث الاجتماعية على أسس عقلية بحتة ، نشاهد مجتمعا آخر يخضع كل ما حوله لقوى أخرى خفية لا يمكن للعقل أن يتصورها ؛ فضلا عن ادراكها وتحليلها ، ومن هنا نشأت الاختلافات فى التصور والتفسير ، فتعددت الآراء ، وتباينت الاجتهادات حتى أصبحت أساسا خرجت منه المذاهب المتعددة سواءأكان ذلك فى مجال العقيدة والمذاهب ذات الطابع الفلسفى ، أو داخل اطار الحياة الاقتصادية والسياسية أو فى أروقة الأدب والثقافة العامة .

ولم يخل عصر من العصور من تعدد الآراء حول تقييم الأحداث التى تباشرها وتعيشها المجتمعات البشرية ، لأنه من الظواهر الأساسية فى حياة الأفراد والمجتمعات ، فلا يخلو منه مجتمع الا ويصاب بالعقم فى انتاجه ، وبالشلل فى مسيرته على درب التاريخ ، واذا كان لزاما على كل فرد أن يدلى بآرائه فيما يدور حوله من أحداث ، وأن يعبر عن تصوراته للمنهج الأمثل فى أسلوب الحياة فى جميع المجالات ، وألا يتقاعس عن نقد ما يراه من أخطاء مهما كان مصدرها ، اذ من الواجب عليه أن يبدى رأيه فى جميع ما يعرض على الساحة القومية والدولية من خطط واقتراحات فى شتى المجالات المختلفة ، ما دام قادرا فكريا ونفسيا واجتماعيا على ادراك جوانب المسائل المعروضة للبحث ، وبيان الخطأ والصواب فيها ، دون خوف أو وجل من صاحب نفوذ أو سلطان ، ودون مبالاة لما ينتج عن ذلك من حرمان من المكاسب المادية أو بعد عن المناصب القيادية ، أو التضييق عليه فى أى مجال من مجالات حياته .

فالتعبير عن الرأى وسيلة من وسائل الوصول الى الحقيقة ، بل هو الوسيلة الرئيسية لضبط مسيرة الحياة وحفظها من الضياع

فى دهاليز اللامعقول ، وصيانتها من التخبط فى ظلمات لرأى الواحد ، أو متاهات الديكتاتورية ، حيث يقضى على كل صاحب رأى حر بوسائل جهنمية لا تعرف للرحمة طريقا ، ولا تدرك للانسانية منهجا • ولذا كان لزاما على كل مواطن أن يواجه بشجاعة كل من تسول له نفسه أن يكبت الرأى الاخر ، أو يضعفه ، أو يحاول تعكير الجو المناسب لسماع الآراء المتعددة ، والأفكار المختلفة فى جميع مشاكل الحياة ، والا أصبحت حياتهم عدما ، ومقامهم فى المجتمع لا معنى له ، لأن المسلم اذا خانته شجاعته عن ابداء رأيه ، والتعبير عما يدور فى نفسه ازاء الأحداث التى تجرى حوله على مسرح الحياة القومية والدولية ، صار دمية يحركها الغير ، وفردا من قطيع يسوقه من لا هم له الا استغلال الناس كما يستغل الراعى حيواناته ، اذ يقرر مصيرها دون أن يأخذ رأيها أو يستمع لشكواها •

ولهذا صور رسول الله ﷺ حال من يخشى مواجهة الظالم أبلغ تصوير حين قال : « اذا هابت أمتى أن تقول للظالم : ياظالم •• فبطن الأرض خير لهم من ظهرها » •• أى أن حياتهم أصبحت لا معنى لها فصاروا فى وضع يكون فيه الموت أكرم وأشرف من هذه الحياة التى لا يملكون فيها شيئا حتى ابداء رأيهم فى القرارات التى تشكل مصيرهم ، كذلك أنكرت آيات عدة من القرآن الكريم على الناس خضوعهم للرأى المستبد دون محاولة تغييره أو معارضته ، اذ يحكى القرآن الكريم مشهدا من الحوار بين ابراهيم عليه السلام وقومه ، فيقول : **« ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين • اذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون • قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين • قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين »**[1] •• أى أنهم وقفوا معهم فى ساحة الضلال لأنهم اتبعوهم دون أن يبدوا رأيا فيما يطلب منهم عبادته ، فلو لم يجبن الناس عن ابداء رأيهم فى هذه الأصنام لوجد من يرفع رأيه مستنكرا هذا الضلال الذى

---

(١) الأنبياء : ٥١ — ٥٤

يسيرون عليـه ، ولتغير الوضع بحيث أصبح هنـاك من يعارض هـذه العبادة التي لا تتفق مع العقل الناضج ، ولكنهم بصمتهم عن ابداء الرأى صاروا جميعا على طريق الضلال ، حتى بعث الله ابراهيم عليه السلام ليطهر لهم عقيدتهم من هـذا الفساد الذى انتشر فيها •

فالشجاعة فى ابداء الرأى صفة من صفات المسلم ، لأن الاسلام فرض عليـه الجهر بالحق ، فلا يتستر على جريمة ، ولا يشايع ظالما ، أو يمالىء ذا نفوذ على حساب مصالح الناس ، فهو لا يخشى الا الله فى تقييم ما يراه طبقا للقوانين الاسلامية والشرائع السماوية،فان حاول وعجز عن تأدية هـذا الواجب بالصورة التى تؤثر تأثيرا ايجابيا ، فعليه أن ينكر الفسـاد بالصورة التى يستطيعها لقول رسـول الله ﷺ : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان » •

غير أن الشجاعة فى ابداء الرأى ليس لها نموذج واحد فى كل الظروف والأحوال فهو يختلف من وقت لآخر ، ويتنوع لمقتضيات الأحوال والملابسات ، فقد تكون مطلوبة فى وقت بحيث يكون النكوص عنها جبنا ، والعدول عنها اثما ، والهروب من مواجهة الظالم خيانة للدين وللأمة ، بينما تكون فى ظروف أخرى تهورا ، والقاء بالنفس الى التهلكة ، ولا يوجد مقياس معين يبين للانسان متى يكون ابداء الرأى شجاعة ومتى يـكون تهورا ، ولكن هنـاك خطوط عامة تحدد معالم التهور ، بحيث يعد من يجاوزها خارجا عن المعقول فى ابد ء الرأى ومتجاوزا ما تعارف عليـه الناس من سمات الشجاعة فى مواجهة الظالمين ، فالتطرف فى النقد تهور ، ومجاوزة حدود الموضوعية فى ابداء النصح يبعد الناصح عن منطقة الأمان ، والتطاول على الناس بحجة الشجاعة فى ممارسة النقد يثير مشاكل يعجز المرء عن مواجهتها فتؤدى به الى دروب ملتوية وطرق وعرة لا يستطيع الخلاص منها فيقضى عليـه دون أن يحقق هـدفه أو يصل الى مبتغاه •

وعليه •• فان الشجاعة فى ابداء الرأى مطلوبة ، ولكن بشرط أن

تكون داخل اطار المعقول ، وفى الحدود التى توصل الى الهدف المطلوب ، والا كانت تهورا يؤدى الى التهلكة ، وهو ما حذرنا الاسلام من الوقوع فيه حيث يقول : « **ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة ، وأحسنوا ، ان الله يحب المحسنين** »(٢) ..

فالاحسان لا يقتصر على انفاق المال فقط ، وانما هو مطلوب فى كل عمل ، فهو فى مجال الرأى وضع ممارسة النقد وضعها الصحيح بحيث لا تنتج آثارا تدمر من يباشرها .

فعلى المسلم أن يوازن بين السلبيات والايجابيات فى هذا الميدان . فان طغت الأولى فان سلوكه يعتبر تهورا ، وان رجحت كفة الثانية فان عمله يظل فى دائرة الشجاعة .. ولا ينبغى أن ينسى المرء أن تقدير هذا راجع للظروف والمناخ العام فى المجتمع .

* * *

(٢) البقرة : ١٩٥

obeikandi.com

٩ — الدين والسياسة

(أ) سوف أحدثك اليوم عن موضوع يظن كثير من المسلمين أنه بعيد عن الدين •

● وما هو هذا الموضوع ؟

— هو ارتباط الدين بالسياسة •

● وهل توجد علاقة بين الدين والسياسة ؟

— نعم •• فالاسلام دين ودولة ، وتعاليم الاسلام تنظم حياة الانسان فى جميع جوانبها ، ومن بينها ارتباطه وعلاقته بمؤسسات الدولة ، فليس هناك انفصال بين ما هو دينى ، وبين ما من شأنه أن يتعلق بشئون الحكم والادارة • واذا تصفحت تاريخ الدولة الاسلامية ، لوجدت أن الدين كان العامل الرئيسى فى توجيه الأحداث السياسية ، وقد أدرك ذلك الأوربيون ولا زالوا ينظرون الى الشرق الاسلامى من هذه الزاوية ، تلمس ذلك فى كتاباتهم وأفعالهم ، فاسمع ما قاله « جوشالك » الألمانى فى كتابه : « الاسلام قوة عالمية متحركة » يقول فى هذا الكتاب :

« لازال الشرق الاسلامى يكون وحدة سياسية وثقافية ودينية ، على الرغم من ظهور الاتجاهات القومية المتعددة فى أقطاره منذ نهاية القرن التاسع عشر ، اذ يشعر المسلمون أن ترابطهم يتجاوز حدود الدولة السياسية ، فالدين بالنسبة لهم ليس أمرا شخصيا ذاتيا ، ينفصل عما عداه من النظم الاجتماعية التى ترتضيها الأغلبية أساسا لحياتها داخل اطار الدولة السياسى ، بل هو القانون الأساسى الذى يشكل كل جوانب حياةالمسلمين،وعليه فمن يتحدث عن روح الاسلام ، فيجب عليهأن يراعى الوحدة الكلية : الروح أو العقل ، والطبيعة أو الجسد ، والثقافة • فحياة المسلمين التى تحكمها التعاليم الدينية ، تختلف عن حياة الناس خارج المجتمعات الاسلامية ، سواء فى الشرق أم فى الغرب ، فطبيعة المسلم ترفض المادية المجردة ، رفضها لانكار وجود الله » •

● هل يفهم من ذلك أن الاسلام له نظام خاص فى أسلوب الحكم ؟

— ماذا تقصد من هذا ؟

● أقصد أن هناك نظامان يسيطران على العالم ، النظام الشيوعى ، وهو نظام الحزب الواحد الذى يرسم سياسة الدولة فى التعليم والاقتصاد والتجارة ... و ... و ... الخ .

والنظام الرأسمالى القائم على تعدد الأحزاب ، وانتخاب نواب عن الشعب يراقبون السلطة التنفيذية ، ويشرعون لها فى جميع المجالات ، فهل للاسلام نظام كهذا أو ذاك ، يلتزم المسلمون بتطبيقه فى مجال الحكم ؟

— اعلم أن الاسلام لم يذكر فى هذا الصدد الا مبادىء عامة ، يجب على المسلمين التزامها وهى :

أن يكون الحكم بما أنزل الله امتثالا لقوله تعالى : **« فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم »**(١) ..

وأن يكون الأمر شورى بينهم ، تنفيذا لقوله تعالى **« وأمرهم شورى بينهم »**(٢) ..

وأن يكون العدل بين الناس هو أساس الحياة فى المجتمع الاسلامى ، كما قال تعالى : **« ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى »**(٣) ..

فاذا تحققت هذه المبادىء فى المجتمع ، كان ملتزما لما أمر به الله ، سواء أكان تطبيقها على هيئة برلمان ، أو مجالس منتخبة ، أو هيئة شورى ، فذلك كله متروك لظروف العصر والبيئة ، فقد يناسب مجلس الشورى مجتمعا فى زمن معين ، ولا يحقق مبدأ الشورى فى زمن آخر ، بل ينبغى استبداله بمجلس نواب ، أو بمجلس شيوخ أو كليهما .

اذن ، فالمدار هو تحقيق المبادىء الثلاثة التى ذكرتها لك ، والوسيلة متروكة للمجتمع يطبق ما يشاء من النظم بشرط أن يكون الحكم بما أنزل الله ، وتتحقق العدالة للمجتمع ، ويكون الأمر شورى بين الناس ، فلا ينفرد به شخص أو مجموعة أو طائفة .

* * *

(١) المائدة : ٤٨
(٢) الشورى : ٣٨
(٣) المائدة : ٨

(ب) تحدثنا فى الأسبوع المـاضى عن ضرورة التزام المجتمع الاسلامى فى مجال الحكم بمبادىء ثلاثة •• هى :

الحكم بما أنزل الله ••

وأن يكون الأمر شـورى بين الناس ••

وأن يكون العـدل هو الهدف الذى يسـعى الى تحقيقه كل فرد فى الدولة •

فهل وضح هـذا فى ذهنك ؟

● نعم •• ولكن أريد أن أستفسر منك عن شىء دار فى خاطرى ، ألا وهو : ما الحكم لو تحقق فى نظام الحكم شرط أو شرطان من الشروط الثلاثة التى ذكرتها وهى :

الحكم بما أنزل الله والشورى والعدل ، أى ما الحكم لو حكم الحاكم بغير ما أنزل الله ، ولكنه توخى العدل فى قضائه بين الناس ، أو لو حكم حكما ديكتاتوريا عادلا ؟

ــ أحب أن ألفت نظرك الى أن دعوى العدل فى الحكم الديكتاتورى مرفوضة ، ذلك أن الناس تتفاوت فى التفكير والسلوك ، ومن هنا يأتى حكمهم على الأشـياء مختلفا ، ولا يوجد انسـان معصوم من الخطأ ، فمبدأ الشورى هو تأمين ضد خطأ الانسان ، لأن الحكم الصادر عن الجماعة أقل تعرضا للخطأ من الحكم الصادر عن فرد واحد ، لأن الجماعة تقلب الأمر على جميع جوانبه ، فتظهر ملابساته وظروفه وتتضح جميع جزئياته ، وتبدو كل أبعاده ، فاذا اتخذ فيه قرار بعد كل هـذا كان احتمال الصواب فيه راجحا على احتمال الخطأ ، أما اذا انفرد واحد فقط بالدراسة والحكم على الأشياء فكثيرا ما يقع فى الخطأ لأن امكاناته محدودة مهما بلغ من العبقرية والذكاء ، فهو وان فذ الجميع فى هـذا ، فلن يبلغ درجة النبـى ﷺ ، الذى رباه الله فأحسن تربيته ، وأيده بالوحى ، ومع ذلك أمره الله سـبحانه وتعالى أن يستشير أصـحـابه فقال تعالى : « **وشاورهم فى الأمر** » (٤) ••

---

(٤) آل عمران : ١٥٩

وما ذاك الا ليعطى لنا المثل الذى يجب أن يحتذى فى كل أمر يحتاج الى قرار ، أى أنه تشريع للشورى فلا ينبغى لأحد أن ينفرد باتخاذ القرار وخاصـــة اذا كان يتعلق بمصير أمة ، ومستقبل دولة ، وبحياة المسلمين على اختلاف مواقعهم ومراكزهم •

أما الدعوى بأن فى الامكان تحقيق العدالة بدون الحكم بما أنزل الله ، فليست صحيحة دائما • لأن عقول البشر متفاوتة ، وامكاناتهم فى فهم ما يعود بالمصلحة على الفرد والأمة محدودة ، وتخلصهم من المؤثرات الزمانية والمكانية شـبه مستحيل ، وخضـــوعهم للأهواء وللاعتبارات الشخصية والعرفية يكاد يكون هو القاعدة العامة ، ولذا فاذا تحقق العدل فى ناحية من نواحى الحيـــاة عن طريق القوانين التى وضعها الانسان ، فانما يغيب فى كثير من النواحى ، واذا حصلت طائفة أو مجموعة من الشعب على حقوقها بواســطة ما شرعه الانسان فان هنـــاك طوائف وجماعات كثيرة لا تستطيع الوصول الى حقوقها عن طريق هذه التشريعات الانسانية ، لأن واضعها عاجز الى حد ما عن تلبية متطلبات كل الطوائف ، وتحقيق العدل لكل انسان يعيش فى المجتمع ، لأنه لا يلم الالمـــام الكامل بنفسيات كل الناس وطبائعهم •

أما الله سبحانه وتعالى فهو خالقهم ، ويعرف كل ما فى الانسان من غرائز وطبائع ويدرك ما يضرهم وما ينفعهم ، ولذلك كانت تشريعاته عامة تلبى كل الاحتياجات ، وتركت التفصيل حسب ظروف كل أمـــة واحتياجاتها •

وعليـــه ، فما أنزل الله هو الدستور ، وتفسير الناس له هو القواعد الجزئية التى تحقق الهدف من وضع الدستور ، ألا وهو وضع ما أنزله الله من أحكام موضع التنفيذ ، وتحقيق مبدأ الشورى فى تفسير هذه المبادىء بحيث لا يخرج هـــذا التفسير عن هدف التشريع الســـماوى وهو اقامة العدل فى المجتمع •

* * *

١٠ — الشـــورى فى الاســلام

أودع الله فى الانســان قدرات تعينه على مواجهة مشاكل الحياة ، بحيث يستطيع اخضاع ما يمكن اخضاعه لتسير حياته فى خط منسجم مع طبيعة الوجود ، فان لم يمكن تطويع ناحيـــة ما من نواحى النظـــام الاجتماعى ، فقد أعطاه القدرة على تطويع نفســه لتعيش فى ســلام نفسى مع الظروف التى تتطلبها طبيعة بناء المجتمعات وتقتضيها ظروف العيش داخل الهيكل الاجتماعى وتفرضها أنظمة الحيـــاة مع آخرين يختلفون معه فى الاتجاهات والميول والأهواء ، فتتشابك هواياتهم ، وتتعارض اهتماماتهم ، وتتصارع آراؤهم حول مفهوم العلاقات الاجتماعية، وتتصادم نظراتهم حول أسلوب العيش تحت ظل نظام واحد ، وداخل اطار يحيطهم جميعـــا •

ومن هنا كان لابد من الاتفاق على أسلوب ينسق بين الآراء المختلفة ، بحيث يؤدى الى اختيار أصلح الصور للوصول الى وضع يعيش فيـــه أفراد المجتمع فى ظل نظام يكفل لهم حقوقهم ، ويهيىء لهم أحسن الظروف لتأدية ما عليهم من واجبات ، نظـــام لا يفرق فيه بين فـــرد وآخر على أساس عنصرى ، أو طبقـــا لأهواء فردية ، ونزوات غريزية ، ولا تضيع فيه حقوق الآخرين ارضاء لطبقة معينة ، أو اشباعا لرغبـــة صاحب نفوذ أو سلطان •

ولمـــا كان تحقيق وجود مثل هـــذا النظام للمجتمع ، هو الرغبـــة الملحة عند الغالبية العظمى ، ان لم يكن عند جميع أفراد البشر ، فقد جد كثير من المصلحين فى البحث عن أحسن الطرق وأسلمها لتحقيق هذا التصور المنشـــود للمجتمع ، فجربت البشرية كثيرا من الأســـاليب والأنظمة سعيا وراء ايجاد مثل هـــذا النظام وتطبيقه ، بحيث يكون المنار الذى يهدى الناس الى الطريق السليم فيخرجون من الأوضاع التى عانى منها الضعفاء كثيرا ، وجاهد فى سبيل تغييرها كثير من دعاة الاصلاح فى عالم البشرية •

فاذا نظرنا الى الأساليب التى طبقت فى مختلف العصور والأزمان ، وبين المجتمعات المتعددة فى الميول والاتجاهات ، لوجدنا أن المجتمع الصالح يدور مع الشورى وجودا وعدما ، بمعنى أنه كلما مارس الناس حقهم فى ابداء الرأى وكشف جوانب الضعف فى الظواهر الاجتماعية وبيان ما يقع فيه الناس من أخطاء ، ومحاولة اصلاحها ، وعـدم التوانى فى نقد من بيدهم الأمر والسلطان ، والجد والمثابرة فى اعطاء البديل لكل ما يرونه غير صالح ، سلم المجتمع من الأمراض ، وقوى تماسكه ، وسار على الطريق الصحيح الذى يؤدى الى تحقيق العدالة الاجتماعية ورفع الظلم عن المستضعفين ، وتخفيف العبء عن الضعفاء والمساكين ، ذلك أن الفرد مهما بلغ من النبوغ الفكرى ، والقوة فى النشاط العضلى ، والحرص الشديد على سلوك الطريق الصحيح ، فلن يستطيع وحـده الاهتداء الى ما هو أصلح للمجتمع فى كل الأحوال ، ولهذا فهو محتاج الى الاستعانة بآراء الآخرين ، بل لابد له من اللجوء الى الطريق الذى يعرف به تصورات الناس على اختلاف مشاربهم واتجاهاتهم لأى مشكلة من مشاكل المجتمع ، وهو ما يطلق عليـه : مبدأ الشورى .

فالشورى مبدأ من المبادىء التى يقوم عليها بناء المجتمع ، بل هى المبدأ الأساسى فى نظم الحياة الاجتماعية على اختلاف أشكالها وألوانها ، سواء أكانت نظاما عاما فى الدولة أو قواعد تنظم الحياة داخل الأسرة ، أو مبادىء يلتزم الناس بها فى سلوكهم ومعاملاتهم فى جميع نواحى الحيـاة المختلفة ، ولهذا وصف الله المؤمنين بأنهم هم الملتزمون بهـذا المبدأ الذى تتطلبه الحيـاة الاجتماعية . فقال : « **وأمرهم شـورى بينهم** »(١) ..

لأن الانفراد بالرأى ، واتخاذ القرارات على أساس وجهة نظر شخص واحد ، أو طبقـا لهوى مجموعة معينة ، أو تحقيقا لاتجاه طائفة من طوائف المجتمع ، يودى بالأمة الى واد سحيق تتنازع فيه الجماعات ،

---

(١) الشورى : ٣٨ .

فتتطاحن كل مجموعة مع الأخرى فى سبيل فرض ما تراه صالحا لها ، أو سعيا وراء تحقيق مصالحها المـادية والفكرية ، دون مراعاة مصالح الآخرين ومن غير اعتبار لصالح الأمة ككل ، ضاربة بالوحدة الاجتماعية عرض الحائط ، اذ هى لا تهتم الا بما يعود على أفرادها بالخير ، غير مدركة أنه خير مؤقت ، ومحدود فى دائرة ضيقة ، اذ سرعان ما يجر هــذا التنازع والشقاق على الأمة كلها الفشل والانهيار ، فتعجز عن مواصلة السير على طريق التقدم ، وتلك آفة تصيب من حصل من وراء هــذا التطاحن على شىء ، كما تضر أيضا بالفريق الذى وقع عليه الظلم .

ولأجل أن يسير المجتمع فى طريق الحيــاة آمنا من هــذه الهزات ، ومحصنا ضد تلك الضربات القاصمة التى تصيبه من جراء الانفراد بالسلطة ، أو الاستحواذ على مغالبة الأمور .. بين الله تعالى فى كتابه العزيز أهمية الشورى لسلامة المجتمع ، فعدها من الأوصاف الأساسية التى ينبغى أن يتصف بهــا المؤمنون ، حيث قال : **((فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا ، وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش واذا ما غضبوا هم يغفرون . والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون))**(٢) ..

فاذا كان تارك الصلاة يعتبر عند فقهاء الشريعة فاسقا ، أو كافرا ان تركها عمدا فان من ينكر الشــورى فى المجتمع الاسلامى يعد من الفاسقين الذين لم يلتزموا بما أمر الله به ،لأن عطفها فى الآية على فريضة الصلاة التى هى عماد الدين يكسبها أهمية ، ويبين لنا أنها من الأمور التى يجب اتباعها ، وما ذاك الا لأن الشــورى تحمى المجتمــع من الديكتاتورية الفــردية ، وتحفظه من تسلط أصحاب الأهواء ، وحاملى الشعارات التى تضر بالمجتمع وتسد الطريق أمام المغامرين الذين يريدون الانفراد بالسلطة ليتحكموا فى مصائر الناس ، وليذيقوا الأحرار سوء العذاب .

---

(٢) الشورى : ٣٦ — ٣٨ .

ولم يستثن الاسلام أحدا من الالتزام بمبدأ الشورى ، حتى ولو كان نبيا يوحى اليه ، فقد ضرب الله لنا الأمثال فى سلوك النبى ﷺ فيما لم يوح اليه به ، حيث وجهه الى مشاورة أصحابه ، فتذكر المصادر التاريخية أنه شاور أصحابه فى كثير من القضايا التى تواجه المسلمين ، اذ ثبت أنه استشارهم فى الخروج لملاقاة عير قريش قائلا : « أشيروا على أيها القوم » .. فتكلم أبو بكر ، وتكلم عمر ، فلما كرر قوله : « أشيروا على أيها القوم » ، قام سعد بن عبادة فقال : ايانا تريد يارسول الله ، والذى نفسى بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها ، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها الى برك الغماد لفعلنا » ..

فيستفاد من هذا الحوار الذى دار بين محمد ﷺ وبين أصحابه أنه لم يرد الانفراد باتخاذ قرار ملاقاة قريش ، بل أشرك معه فى الرأى كبار الصحابة ، وذلك ليضرب للمسلمين المثل فى أنه لابد من مشورة أصحاب الرأى عند اتخاذ القرارات فى المسائل التى تهم المسلمين ، فلا ينبغى لأحد ، مهما كان مركزه فى الدولة أن ينفرد بتحديد مسار عمل الدولة واتجاهاتها ، بل لابد من طرح الأمر أمام القادرين على الاسهام بالرأى البناء ، لأن ذلك هو الأسلوب الذى يحمى الأمة من التخبط بين القرارات الفردية الهوجاء ، ويحفظها من الأخطار التى تصيبها من جراء الانفراد باتخاذ القرارات .

كذلك أمر الله رسوله محمدا ﷺ بأن يسلك مع قومه طريق الحسنى — أو بالتعبير العصرى طريق الديمقراطية — ليجمع شتاتهم ، ويؤلف بين آرائهم ، كى يسيروا على نمط يؤدى بهم الى الخير لمجتمعهم ، والى الصالح لحياتهم ، يقول الله تعالى فى وصف أسلوب النبى ﷺ فى قيادة الأمة : « **فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك** »(١) .

أى لو كنت متبعا طريق الديكتاتوريين الذين يقسون على شعوبهم ،

---

(٣) آل عمران : ١٥٩ .

ويتحكمون فى مصائر الناس ، دون شفقة عليهم ولا رحمة بهم لانهارت الجماعة ، وأصبحت شيعا وأحزابا ، لا يجمعهم طريق ، ولا يؤلف بينهم مبدأ ، ثم يعقب الله على هذا التقرير لحالة قيادة محمد ﷺ للأمة ، فيأمره بتطبيق مبادىء لا زالت هى السمات الأصيلة فى حكم الشعوب حكما ديمقراطيا فيقول : « **فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ، فاذا عزمت فتوكل على الله** »(٤) ..

أى فاذا استقر الرأى على قرار فلا تتردد فى تنفيذه لأنه يعبر عن ارادة الجماعة .

ولو تصفحنا سنة رسول الله ﷺ ، لوجدناها مليئة بالأحاديث التى توصى المسلمين بالشورى وتحذرهم من الانفراد باتخاذ القرارات فيما يجد من أحداث .. نذكر منها على سبيل المثال ما روى عن على رضى الله عنه أنه قال : « قلت يا رسول الله .. الأمر ينزل بنا بعدك ، لم ينزل فيه قرآن ، ولم يسمع منك فيه شىء . قال : « اجمعوا له العابد من أمتى ، واجعلوه بينكم شورى ، ولا تقضوه برأى واحد »فهذا الحديث يدل على وجوب أخذ رأى المختصين ، ويلزم المسلمين بالخضوع لرأى الأغلبية ، كما أخرج الحاكم عن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لو كنت مستخلفا أحدا من غير مشورة ، لاستخلفت ابن أم عبد » فهذا بيان للمسلمين يدل على أنه وهو نبى لم يكن من حقه استخلاف أحد من غير مشورة،فمن الأولى ألا يكون لمن سواه الحق فى ذلك ، وهو تأكيد على أن تولية الحاكم لا تكون الا عن طريق الانتخاب ، وذلك غاية ما تتمناه الشعوب فى اختيار حكامها .

سار الخلفاء الراشدون من بعده على أسلوب الشورى فى الحكم ، فنرى أن تولية أبى بكر رضى الله عنه لم تتم الا عن طريق الشورى فى اجتماع ضم كبار المسلمين فى المدينة ، فقد روى أنه لما توفى الله نبيه اجتمع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة ليختاروا خليفة لهم ، فذهب اليهم

---

(٤) آل عمران : ١٥٩ .

أبو بكر وعمر وأبو عبيدة من المهاجرين ، وحصل نقاش طويل بين الفريقين، فكان الأنصار يرون أنهم أحق بالخلافة على أســاس أنهم هم الذين دافعوا عن الاســلام ، وحموه بأنفسهم واموالهم ، وأنهم أصــحاب الدار ، وهم الأكثرية •

بينما رأى الفريق الثانى أنهم أحق بهذا الأمر ، على اعتبار أنهم أول من آمن بالاســلام ، فهم أولياء الله ورســوله ، وهم الذين صبروا معه على شــدة أذى قومه ، وبعد أخذ ورد استقر الرأى على مبايعة أبى بكر خليفة ، ثم أخذت له البيعة من المسلمين جميعــا ، وأسلوب أخذ البيعة قريب الشــبه بالاستفتاء الذى يجرى فى بعض النظم السياسية فى عصرنا الحاضر •

وكذلك كان الأمر فى تولية عمر رضى الله عنه ، فيذكر الرواة أنه لمــا شعر أبو بكر بقرب وفاته رشح عمر لخلافته ، بعد أن استشار أولى الرأى مثل عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وسعيد بن زيد وغيرهم، ولم يكتف بهذا ، بل خاطب الناس جميعا قائلا : « أترضون بمن أستخلف عليكم •• فانى والله ما آلوت من جهد الرأى،ولا وليت ذا قرابة •• وانى قد وليت عليكم عمر بن الخطاب •• فقالوا : « سمعنا وأطعنا » •• ولم يصبح عمر خليفة بمجرد هذا الترشيح ، الا بعد أن بايعه المســلمون فى المســجد فى اليوم التالى •

ومثله حدث فى تولية عثمان وعلى ، وان اختلفت طريقة الاختيار تبعا لتغير الظروف والملابسات •

● فاذا كان هذا هو وضع الشورى فى الاسلام ، فلماذا نرى معظم العالم الاسلامى اليوم قد تنكر للديمقراطية •• اذ نرى معظم أنظمة الحكم فيه أقرب الى الديكتاتورية منها الى حكم الشــورى الذى وصى الله به نبيه ﷺ ؟ •

ـــ ان الوضع الموجود اليوم فى العالم الاسلامى له خلفيات تضرب بجذورها الى أعماق التاريخ عبر قرون مضت • فالتمزق الذى يســود

المجتمعات الاســـلامية ، والخلافات التى تسيطر على الحيـــاة العامة فيها ، والمنازعات الاقليمية والسياسية التى تطغى على كل ما حولها من مظاهر الحياة ، نتجت عن عوامل عدة ، بعضها يرجع الى أسباب دينية ، والبعض الاخر سياسى أو اقتصادى •

أما المؤثرات الدينية فتتلخص فى أن المسلمين تعرضوا لهجمات من أصحاب الأديان الأخرى ، تركزت حول اقامة فواصل بين الاسلام والمسلمين ، ويبدو ذلك واضحا فى الموجات الفكرية التى تعرضت لها المجتمعـــات الاسلامية منذ الحروب الصليبية حتى اليوم ، فقد كان من أهداف دراسات المستشرقين فى العالم الغربى محاولة اقناع الشباب المسلم بأن مبادىء الاسلام لا تصلح اليوم للتطبيق فى المجالات السياسية والاقتصادية ، ونجحوا فى تربيه جيل لا يعرف عن الاسلام شيئا فى هذا المجال • ومن هنا اتجهت الصفوة الحاكمة — وهم من الــذين تتلمذوا على الفكر الأجنبى عن الاسلام — الى تطبيق النظريات الأجنبية عن العالم الاسلامى ، فوقعت بينهم وبين شعوبهم منازعات ، أدت الى فرض نظم ديكتاتورية لقمع المعارضين لهذا الفكر المستورد •

أما الجانب السياسى الذى أبعد العالم الاسلامى عن منابع فكره ، وأغرقه فى نزاعات لا آخر لها ، فقد خلقه الاستعمار الذى سيطر على العالم الاسلامى فترة من الزمن حاول خلالها أن يقطع أوصال المسلمين ، ويمزق حبال الاتصال بينهم . مسيطر عليهم سيطرة كاملة ، وأكد هـــذه السيطرة بالنظم الاقتصادية التى استخدمها ، فتحكم بها فى توجيـــه سير الحياة فى جميع المجالات ؛ وبهذا فقد المسلمون هويتهم وأصبحـــوا يطبقون نظما ديكتاتورية ، أو شبه ديكتاتورية اليوم فى مجتمعاتهم ، فلا ينبغى أن ينسب هـــذا الى الاسلام ، وانما الى الظروف التى خلقتهـــا الاستعمار لهم ؛ فهو الذى هيأ الجو لهذه النظم ، وهو الذى ساعـــد على وجودها •

أما ما يسمع اليوم عن انتفاضات اسلامية ، هنا وهنـــاك ، فليست

obeikandi.com

الا تعبيرا عن الضغوط التى يتعرض لها المسلمون ، فاذا نجحت بعض هذه الانتفاضات فى السيطرة على مقاليد الحكم ، فلا يعتبر منهجها فى الحكم اسلاميا ، لأن القائمين عليها لا يزالون تحت تأثير ثورة الانتفاضة ضد الظلم ، فهم لا يتحكمون فى قراراتهم بحيث تخرج طبقا للتعاليم الاسلامية ، وفضلا عن هذا فان الجو لم يهيىء لهم بعد معرفة مبادىء الاسلام فى السياسة والحكم على الوجه الصحيح ، لأنهم تربوا فى جو غير اسلامى ، فهم اما متطرفون يمينيون ، سيطرت عليهم العاطفة الدينية دون أن يكون لهم دراية بفقه الاسلام وشريعته ، واما متعصبون سلكوا هذا المسلك كرد فعل لما وقع عليهم من الظلم قرونا طويلة •

وعليه •• فليس ما يجرى فى العالم الاسلامى اليوم حجة على الاسلام ، فمن يريد معرفة مبادئه فعليه بدراسة نصوصه وقراءة ما طبقه المسلمون الأوائل فى مجتمعاتهم ، وقد وضحنا ذلك فى صدر حديثنا فيما يتعلق بالشورى ، فبينا أنها مبدأ من مبادىء الاسلام الذى نص عليه فى القرآن الكريم ، وفى سنة رسول الله ﷺ القولية والفعلية •

فاذا اعتبرت الديمقراطية اليوم فى العالم الغربى مظهرا من مظاهر التقدم فى العصر الحديث ، فليعلم أنصار التقدم أن الاسلام طبقها قبل أربعة عشر قرنا •

* * *

١١ — رأى الاسلام فى الديمقراطيات المعاصرة

يميل الانسان بطبعه الى حب التملك ، وممارسة السيطرة على ما حوله ، ومن حوله ، فهو يتجه منذ طفولته بدافع الغريزة الى الاستحواذ على ما يقع فى يده ، ولا يقبل أن يشاركه فيه طفل آخر ، بل قد تدفعه هذه الغريزة الى محاولة سلب ما بيد الأطفال الآخرين والاستيلاء عليه ، ويرفض كل محاولة لاستخلاص ما ليس له حق فيه من يده ، وتظل هذه الغريزة مسيطرة عليه حتى مماته ، وان اختلفت صورها وأشكالها ، فهى تتحول بعد مرحلة الطفولة الى السعى وراء جمع المادة ، أو الجرى وراء ما يضفى عليه ثوب الشهرة ، أو التزاحم والتقاتل على السلطة .

فهذه الميادين الثلاثة هى ساحات المنافسة بين الناس جميعا ، غير أنهم يختلفون فى سلوك الطرق المؤدية الى بلوغ الأهداف فى كل ميدان ، فبعضهم يركب الصعاب ويرتاد المفاوز والقفار للحصول على المادة ، غير عابىء بما يرتكبه من سيئات فى حق بنى وطنه ، وما يقترفه من فواحش مع من يعترضون سبيله ، لأن هدفه هو المزيد من المال ، مهما كلفه ذلك من مجاوزة الحدود المشروعة ، والقوانين التى تحفظ حق الآخرين . والبعض الآخر يسلب حقوق الناس فى سبيل الوصول الى مركز يضفى عليه هالة الشهرة وبريقها ، ويشبع عنده غريزة حب الظهور والتعالى على من حوله . وهناك فريق ثالث استعبدته غريزة الحكم والسلطة والسلطان ، فملكت عليه حواسه ، وسيطرت على مشاعره وعواطفه ، وأخضعته لهواجسها وتخيلاتها ، فاندفع وراء كل صوت يعطيه أملا فى هذا المجال ، فهو يبذل أقصى ما فى وسعه فى سبيل الوصول الى مراكز الحكم ، مسترخصا كل ما لديه ، حتى وان اقتضى الأمر المجازفة بكل ما يملك ، لأن غريزة حب السلطة عنده خدرت مشاعره وأحاسيسه ، فحولته الى انسان لا يبالى بما يصيبه فى سبيل ما يعتقد أنه موصل الى الهدف الذى سيطر على جميع حواسه ، وبالتالى فهو لا يعبأ

بحقوق الآخرين ، اذ يرتكب جنايات ، فيصادر أموالا ويسلب حريات فى سبيل الاحتفاظ بحكمه وسلطانه •

ولهذا عنيت المناهج التربوية — سواء أكانت دينية أو مدنية — بالطفل ، فركزت على غرس الفضيلة فى نفسه ، وحاولت تعويده على حب الغير ، وتهذيب غريزة حب التملك عنده بحيث يستقر فى نفسه أن للآخرين حقوقا أيضا ، فلا ينبغى أن يعتدى على هذا الحق ، مهما كانت الظروف والملابسات ، فالمال وان كان لازما للحياة ، الا أنه يجب على المرء أن يجمعه من طرق مشروعة حتى لا يظلم أحدا ، والشهرة وان كانت غير مذمومة ، فلا يجوز سلب حقوق الآخرين فى سبيل الوصول اليها ، والسلطة وان كانت لازمة فى المجتمع ، الا أنه لا يجب التنافس عليها بأسلوب غير انسانى ، فلا يضار أحد فى نفسه أو ماله أو حريته ، بحجة تأمين الطريق الموصل الى الحكم والسلطان ، أو تحت شعار تدعيم نظم الحكم ومؤسساته أو فى ظل ستار المحافظة على سطوة الدولة وهيبتها •

غير أن تأثير المناهج التربوية ، والمؤسسات التعليمية فى سلوك الفرد محدود بالظروف الاجتماعية ، وبالأحوال السياسية ، اذ سرعان ما ينسى الانسان ما تلقاه فى هذه المؤسسات من مبادىء تدعو الى الفضيلة ، وتنفر من الرذيلة ، لو لم يجد مجتمعا صالحا يرعى حقوق الناس ، ويحافظ على حرمات المواطنين ، ولن يبلغ هذه الدرجة الا اذا التزم أفراده بالتواصى بالحق فيما بينهم ، واتبعوا الطريق التى تؤدى الى حفظ الحرمات ، وتأمين الممتلكات ، وترسيخ قواعد الحريات فى المجتمع ، فلا يطغى أحد على آخر ليسلبه حريته ، ولا يعتدى مواطن على أخيه ، فيهتك عرضه ، أو يسرق ماله ، أو يجرده من حقوقه المشروعة كمواطن ، فيحرم عليه ممارسة نشاطه فى أى مجال من مجالات الحياة فى المجتمع •

ولما كان الانسان يميل بطبعه الى الاعتداء على حقوق الآخرين فى سبيل اشباع غرائزه ، فقد فرض الله على المسلمين التواصى بالحق ،

حتى لا يتمادى المعتدى فى بغيه وعدوانه ، فحثهم على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، حتى لا تشيع الفاحشة بين الناس ، أو ينتهك أحد حرمات الضعفاء والمساكين ، أو يستغل قوى العامة والدهماء فى سبيل مصلحة فرد أو طائفة ، أو يستعمل مواقع السلطات فى الدولة وسيلة للبطش بالأبرياء أو لاقصاء أصحاب الرأى الحر ، والداعين الى الفضيلة من ساحة الدعوة الى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

فالتواصى بالحق ، أو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من الفرائض التى فرضها الله على المسلمين ، حتى تتحقق العدالة الاجتماعية ، ويسود الحق ، وترسخ الفضيلة فى نفوس الناس ليصبح المجتمع الاسلامى متماسكا قويا ، بعيدا عن مواطن الضعف والهلاك لأن اعتداء الأفراد بعضهم على بعض نذير بالانهيار والضياع ، وصدق الله اذ يقول :

« والعصر . ان الانسان لفى خسر . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر »(١) ..

ويقول : **« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »**(٢) ..

ويقول : **« ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون »**(٣) ..

ومما يصور لنا أهمية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى حياة المجتمعات قول رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده ، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم » ..

فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر — أو بالتعبير المعاصر : حرية النقد وممارسته ، أو افساح المجال لسماع الرأى المعارض — هو الركن الأساسى فى قيام الدولة التى تظل مواطنيها جميعا بمظلة الأمن والطمأنينة ، وتهيىء لهم الظروف التى تساعد كل فرد فى الحصول

---

(١) سوة العصر .
(٢) آل عمران : ١١٠ .
(٣) آل عمران : ١٠٤

على حقوقه ، كما يطالب فيها كل فرد بتأدية ما عليـــه من واجبات ، بحيث لا يستغل فرد أحـــد المواطنين ، ولا تستأثر طائفة أو جماعة بخيرات الوطن دون غيرها من الطوائف والجماعات ، ولا يضطهد فيها انســـان ، مهما كان موقعه فى سلم الحيـــاة الاجتماعية والسياسية فان تحقق ذلك فى أى نظام من النظم التى تطلق على نفسها « النظـــام الديمقراطى » أو « الحكم البرلمانى أو الدستورى » •• فالاسلام يقره ، بل يدعو المسلمين الى الوقوف وراء كل ما من شأنه أن يحقق العدالة بين الناس جميعا ، لا فرق فى ذلك بين حاكم ومحكوم ، ولا بين سيد ومسود •

وما ذاك الا لأن الاســـلام دعا الى التراحم والتعاطف بين الناس ، والى عدم الظلم واستغلال الضعيف ، والى أن يؤدى كل واجبه ، ويأخذ كل ذى حق حقه ، ولم يحدد لنا صورة معينة لتحقيق هـــذه الأهداف ، بل ترك ذلك لظروف العصر والبيئة ، وعليـــه فان ارتضت الأمة نظاما خاصا ، رأت فيه أنه يحقق هـــذه الأهداف ، فلا حرج عليها من تطبيقه ما دامت قد اتبعت فى الموافقة عليـــه القاعدة العامة التى أوصى بها الله فى كتابه العزيز حيث يقول : « **وأمرهم شورى بينهم** »(٤) ••

أما اذا كان النظام الديمقراطى يحرم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر — أو كما يقال فى لغة السياسة المعاصرة لا يسمح بقيام معارضة فى الدولة ، فيعاقب أصحاب الرأى الحر أو يتعقب الذين ينتقدون أصحاب السلطة فى الدولة — أو يميز طائفة على أخرى ، كما هو الحال فى النظام الشـــيوعى ، فان الاســـلام يرفضه ، بل يدعو المسلمين الى التكاتف والتساند للخلاص منه •

واذا ساعدت الديمقراطية على خلق مناخ يساعد أصحاب الثروات الضخمة على استغلال من بيده السلطة فى سبيل الحصول على المزيد من المـــال ، أو على تهيئة ظروف تمكنهم من السيطرة على مؤسسات التوجيه والاعلام فى الدولة ، كما هو واقع فى بعض البلاد الرأسمالية ،

---

(٤) الشورى : ٣٨ .

فان الاسلام يرفض هـذه الظواهر ، لأنه تؤدى الى استغلال الضعفاء ، وضياع حقوق المواطنين •

وعليه •• فالديمقراطية التى يقبلها الاسـلام ، هى التى تحافظ على التوازن بين أفراد المجتمع ، فلا يطغى انسـان على حق آخر ، ولا يستغل مواطن موارد الدولة لنفسه ، غير عابىء بما للآخرين فيها من حقوق ، ولا يتحقق ذلك الا اذا قام كل واحد بالواجب الذى فرضه الله عليـه ؛ وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أو بتعبير السـياسيين : اذا تحقق لكل مواطن الحق فى النقد ، واسماع رأيه بالطرق المشروعة الى من بيدهم تصحيح الأوضاع التى تحتاج الى تغيير •

أما صيغة ممارسة هـذا الحق ، كأن يكون أحزابا أم جماعات ، أو عن طريق مؤسسات برلمانية ، أياً كان اسمها وشكلها ، فذلك راجع لظروف العصر والبيئة ، ولا اعتراض للاسـلام على أى شـكل من الأشـكال البرلمانية ، ما دام هو الوسـيلة الصحيحة لبلوغ الأهداف التى يريد الله أن تتحقق فى المجتمـع الاسـلامى ، وهى : العـدالة الاجتماعية ، وحرية الرأى بحيث لا يرتكب أحـد مظالم فى حق الأمة ويفلت من العقاب ، أو يحال بين أحد وبين الوصول الى حقه فى جميع مجالات الحيـاة •

* * *

١٢ ــ موقف الاسلام من التسليح النووى

يخضع سلوك الانســان لجملة من الغرائز المعقدة يمكن أن تندرج تحت نوعين أساسيين ، وهما : غريزتا الخير والشر ، فأى عمل يقوم به الانســان ــ سواء أكان على المستوى الفردى ، أى يتعلق بذاته هو لا يتعداه الى غيره ، أو على مستوى الجماعة ، بمعنى أن آثاره تتعداه الى من يعيشون معه فى الأسرة ، أو فى الوطن ، أو فى المجتمع الانسانى كله ــ لا يخرج عن دائرتى الخير والشر ، ولمــا كان الانسان واقعا تحت سيطرة غرائز متنوعة أخرى ، تدفعه دفعا الى اشباعها ، كغريزة التملك ، أو السيطرة ، أو الشهرة ، أو الشهوة ، أو الجاه والسلطان ، وما أشبه ذلك من اتجاهات وميول ، فقد يرتكب فى سبيل ذلك جرائم فى حق نفســه وغيره ، أو يباشر أعمــالا تضر بمصالح الآخرين وتســلبهم حقوقهم الطبيعية •

فان فعل ذلك فقد انحدر فى هاوية الشر ، وغاص فى بحور الأشرار ، واتبع نداء غريزة الشر فيه ، وعندئذ يموت جانب الخير فى نفســه ، وتنفرد غريزة الشر بالسيطرة على جوارحه والتمكن من توجيهه نحو الطريق الذى يشبعها ، ويجسدها فى أعماله اسيئة التى يرتكبها ضد الآخرين ، وفى هــذه الحالة لا يستطيع أحد أن يردعه الا بالتحذير من سوء العاقبة أو بتنفيذ العقوبة المشروعة لردع من يرتكبون مثل هــذه الأعمال الســيئة •

وتتنوع العقوبة طبقا للجريمة التى ارتكبها المذنب ، كما تتعدد أداة العقاب تبعا لســطوة وقوة من اعتــدى على الآخرين ، يقــول الله تعالى : « **وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص** »[١] ••

فلو اتخذ المعتدون أسلوبا بربريا فى اعتدائهم على المواطنين ، فعلى ولى الأمر أن يوقع عليهم جزاء يناســبه • يقول الله تعــالى :

---

(١) المائدة : ٤٥ •

obeikandi.com

« انما جزاء الذين يحاربون الله ورسـوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ، ذلك لهم خزى فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم »[٢] ..

لأن ذلك هو الوسـيلة الفعالة فى محاربة الشر والقضاء عليـه فى المجتمع . يقول الله تعالى : **« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض »**[٣] ..

ولا يقتصر قانون دفع الشر بالعقوبة المناسبة له على سلوك الأفراد فى المجتمع فقط ، بل هو السلاح البتار أيضا فى وقف اعتداءات الدول على بعضها ، اذ لو لم تتخذ كل دولة من أسباب القوة ما يرهب الدولة الأخرى ويخيفها من عواقب الاعتداء على حقوق جاراتها ، لأكل القوى منها الضيف ، ولهلكت شـعوب تحت سنابك خيول الدول الكبرى ، وصدق الله اذ يقول : **« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيـل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم »**[٤] ..

فاذا تسلحت دولة بسلاح ما ، كان على الدول الأخرى أن تعمل جاهدة للتسليح بمثله ، أو أكثر فتكا منه ، حتى لا يغرى ضعفها الدولة ذات السلاح الفتاك بالاعتداء عليهـا وسلبها حقها فى الحيـاة الحرة الكريمة ، وتسرى هـذه النظرية على السلاح النووى ، اذ لا يتحقق التخويف الذى تحدثت عنه الآية السـابقة الا اذا كان لدينا أسلحة تضارع الأسلحة التى تملكها الدول الأخرى ، بما فيها السلاح النووى .

وليس معنى هـذا أن الاسـلام يبيح صـنع الأسلحة القتالية اباحة مطلقة ، وانما أباحها لردع من يملكها ، أو منعه من أن يقوم بعمليات ضد المسلمين ، فهى اباحة مشروطة ، فلو اتفقت الدول على تحريم صنع هـذه الأسلحة ، وكانت هنـاك ضمانات أكيدة لتنفيذ هـذا التحريم ،

---

(٢) المـائدة : ٣٢ .　　(٣) البقرة : ٢٥١ .

(٤) الأنفال : ٦٠ .

obeikandi.com

فان الاســـلام يحث المسلمين على الانضمام الى مثل هـــذه المعاهدات ، لأن علة الاباحة امتنعت فى هـــذه الحالة ، أما اذا لم يتحقق ذلك فعلى المسلمين انتاج هـــذه الأسلحة امتثالا لقوله تعالى : ((**فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليـــه بمثل ما اعتدى عليكم**))(٥) ..

اذ لا يتحقـــق ذلك الا اذا كان عنـــد المسلمين ســـلاح يضارع ماعند أعدائهم .

ولمـــا كان الاسلام دين الســـلام ، فيجب على المسلمين أن يكون سلاحهم أقوى مما لدى الآخرين ، لأن الســـلام لا يتحقق الا اذا أدرك الأشرار أن اعتدائهم على الآخرين سيقابل بمثله ، أو أكثر منه ، فعملية التسليح هى فى حد ذاتها دعامة من دعامات الســـلام ، لأن الانســـان خاضع فى معظم أحواله الى غريزة الشر التى تدفعه الى سلب حقوق الآخرين ، فينبغى ردعه وايقافه عند حده ، فذلك عقاب له ، ووســـيلة لتحرره من تسلط غريزة الشر عليه ، كما هو درس للآخرين كى يمنعوا التفكير عندما تحدثهم أنفسهم بالاعتداء .

* * *

---

(٥) البقرة : ١٩٤ .

١٣ ـــ رأى الاسلام فى غزو الفضاء

سيطرت أبحاث الكون على عقول العلمـــاء فى العصر الحديث ، فاندفعوا وراءها فى كل مكان يبحثون عن الجديد فيها ، وينقبون فى صفحات الطبيعة المجهولة عن تفسير للظواهر الكونية المتعددة ، محاولين كشف أسرارها الغامضة ، وتوضيح عجائبها التى بهرت ـــ ولا زالت ـــ عقول البشر ، وخلبت أفئدتهم ، وحركت مشاعرهم ، تارة نحو الاعجاب الذى يوحى الى الانسان بالعجز أمام هذا الكون ، وأخرى نحـــو الخوف من الظواهر التى فهمها الانســـان على أنها تعبير عن غضـــب الطبيعة عليـــه ، أو نوع من عقاب الله له على ما ارتكبه من ذنوب وآثام •

وقد قطعت هـــذه الأبحاث شوطا كبيرا فى النصف الثانى من القرن العشرين ، فدار الانســـان بمركبته الفضائية حول القمر ، وهبط على سطحه ، كما أرسلت المركبات الفضائية الى كواكب أخرى ، لاكتشاف طبيعتها ، والبحث عن امكانية الحيـــاة فيها ، كذلك غاصت الأبحاث فى باطن الأرض سعيا وراء اكتشاف ما فيها من معادن ومواد تســـاعـــد على تطوير الحيـــاة فوق ظهرها •

غير أن بعض المســـلمين يتساءلون عما اذا كان الاســـلام يبيح للانسان أن يخوض بآلاته فى مثل هذه المجالات أم لا (؟ !) وقد أحدثت هـــذه التساؤلات ردود فعل متفاوتة فى أوساط علماء الدين ، فذهب البعض الى أن من العبث أن ينفق الانســـان أموالا طائلة على هـــذه الأبحاث التى لا تعود بالخير ـــ حسب مفهوم هـــذا البعض من علماء الدين ـــ على البشرية ، بينما ترى الأكثرية منهم أن الاســـلام لا يحرم على الانســـان البحث فى أى مجال ، مادام ذلك سيعود بالخير فى أى ناحية من نواحى الحياة على مجموع الناس ككل •

ومما لا شـــك فيه أن هنـــاك فوائد جمة تعود على الانســـان والمجتمعات البشرية من هـــذه الأبحاث ، فبواسطتها توصل الانســـان الى كشف جوانب كثيرة من جوانب ابداع الخلق ، ورأى شواهد تدل

دلالة قاطعة على وجود مبدع لهذا الكون ، وخالق نظمه على هـذا النحو من الدقة التى تعجز عنها عقول البشر قاطبة ، مما يعمق الايمان فى النفوس ويثبت اليقين بالله فى القلوب ، فيستقيم سـلوك الناس ، وتستقر حياتهم على أسس من الرحمة والتعاطف والتآلف ، تقربا الى الله ورجاء فى ثوابه ، وخوفا من عقابه •

كما أسهمت هـذه الأبحاث فى دفع عجلة التطور والتقدم فى جميع المجالات ، فأخضـعت كثيرا من الظواهر الكونيـة للانسان ، فاستخدمها فى التغلب على كثير من آلامه وفى السيطرة على ما كان يخيفه من مظاهر الطبيعة ، وفى تسخير ما فى الكون لخدمته ، وبذلك يـحقق قـول الله تعـالى : ((**ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السـموات وما فى الأرض**))(١) ••

فكل ما يكتشفه العلم من جوانب الكون ومظاهر الطبيعة ليستفيد منه الانسان فى حياته ، فهو بيان وكشف جديد لجوانب تسخير الله له ما فى السموات وما فى الأرض •

ولهذا حث الاسـلام فى كثير من آيات القرآن الكريم على النظر فى ملكوت الله ، فقال تعـالى : ((**قل انظـروا ماذا فى السـموات والأرض**))(٢) ••

وقال : ((**أو لم ينظروا فى ملكوت السـموات والأرض**))(٣) ••

وقال ((**أفلم ينظـروا الى السـماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج**))(٤) ••

وقال ((**أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت • والى السـماء كيف رفعت**))(٥) ••

فليس النظر قاصرا على المشاهدة والتأمل بالعين المجردة ، بل يشمل البحث بكل ما أوتى الانسـان من آلات ومعدات ، تساعده على الكشف

---

(١) لقمان : ٢٠ .
(٢) يونس : ١٠١ .
(٣) الأعراف : ١٨٥ .
(٤) سورة ق : ٦ .
(٥) الغاشية : ١٧ ، ١٨ .

عن جوانب الاعجاز فى ملكوت الله ، وهو بهذا يستخدم ما آتاه الله من عقل للتفكير فى خلقه ، فيدخل بذلك فى عداد المؤمنين الذين وصفهم الله بقــوله : **« ويتفكرون فى خلق الســموات والأرض »**(٦) ..

فاهمال المسلمين هــذا الجانب فى حياتهم يعد تقصيرا فى حق أنفسهم بالبعد عن اظهار عظمة الله ، لتطمئن فى ايمانها وتستقر فى عقيدتها ، فتبتعد بذلك عن عواطف الأفكار الهدامة ، ومَوجات الالحاد المدمرة ، بالاضافة الى أنهم بهذا الاهمال يتخلفون عن ركب الحضارة والتقدم ، فتضعف شوكتهم ، ويصبحون لقمة سائغة لأعدائهم .

فضلا عن أنهم بتجنبهم البحث فى ملكوت الله ، يكونون قد عصوا أمر الله وخالفوا تعاليمه ، فلم يمتثلوا لمــا جاء فى القرآن الكريــم من آيات عدة تحث على البحث والنظر فيما يحيط بالانسان من ظواهر كونية ، وتغيرات طبيعية ، يقول الله تعــالى : **« ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من الســماء من ماء فأحيا به الأرض بعــد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين الســماء والأرض لآيات لقوم يعقلون »**(٧) ..

اذ لا يظهر جانب الاعجاز فى هــذه الظواهر بشكل واضح الا بعد دراستها دراسة علمية ، تبرز ما خفى منها للنفس الانســانية ، حتى تطمئن الى أنها من صنع العليم الحكيم .

* * *

---

(٦) آل عمران : ١٩١ (٧) البقرة : ١٦٤ .